ساحر الكتب

هاتور

HATHOR

إبراهيم المحلاوي

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

هاتور

إبراهيم المحلاوي

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

إلى

أولئك الذين قرّروا العيش ولم تحالفهم الحياة

الخطأ يا عزيزي بروتوس ليس في نجومنا، بل في أنفسنا، لأننا أشخاص ضئيلو الشأن.

يوليوس قيصر

ديفيد

بداية

الأحد.. الواحدة ظهرًا

إنها نائمة وكعادتها في كل الأيام كانت عارية، تتدثّر بالغطاء الخفيف ـ على الرغم من برودة الجو ـ وهي متقوقعة على نفسها، كقنفذ خائف من أن يهاجمه أحد. وجهها الملائكي الشّاحب يصدر انفعالات وتقلصات كأنها تحلم بأشياء مزعجة ولكنها تظل ساكنة لا تتحرك إلى أن تستيقظ.

اعتدت على هذا المشهد في السنوات الماضية...

في كل مرة أعود فيها إلى البيت أجد ماري ساكنة في سَبَاتُها وعندما تفيق تشتكي من صداع الرأس النصفي الذي لا يكف عن تعذيبها، وعلى الرغم من رقدتها الطويلة بدت رشيقة وجذابة بوجه يشع بياضًا وطفولة.. بالتأكيد أُجامل في هذا الأمر لقد تلاشى كل

شيء مع تدهور حالتها النفسية.. لقد كانت تنضج بالحيوية والجاذبية الجنسية والإصرار والتهور وكذلك السعادة.. لعنة اللـه على الأقدار السّيئة.

أخلع ملابسي بهدوء وحذر حتّى لا تصحو، أتعثر في أثناء خلع البنطال فأصدر صوتًا فتستفيق...

ـ متى عدت؟!

سألت بصوتها الناعس وأنا أنزع البنطال من أطراف قدمي فقلت بارتباك:

ـ منذ لحظات.. هل أقلقتك؟!

أجابت بخمول:

ـ لا لقد نمت كثيرًا.

وتثاءبت وهي تزيح الغطاء عنها وتلقي بقدميها على الأرض لتنتصب، كاشفة عن جسدها الأبيض النحيف الشّهي الذي يثيرني دائما.

ـ هل رتّبت كل شيء من أجل حفل عيد زواجنا

أخلع الجوارب وأجيب بابتسامة تبعث على الطّمأنينة:

ـ نعم.. لا تقلقي يا حبيبتي فكل شيء جاهز.

اقتربت مني وهي تضع يدها على رأسها في محاولة لجمح تدفق الصّداع، وقالت في أسى شديد:

ـ كيف لا أقلق والقلق يحاصرني طوال الوقت؟!

قلتُ مداعبًا:

ـ لو قضيت ليلتك في لعب القمار واحتساء النّبيذ العتيق لكنتِ في أفضل حال.. أنتِ بحاجه إلى فعل أيّ شيء لكي يبدد مخاوفك.

ـ لا أستطيع... أنا عاجزة ومـ...

قلت مقاطعًا:

ـ أنتِ خائفة ولستِ عاجزة.

ـ النتيجة واحدة في النهاية.

ونظرت في عيني مباشرة وقالت برجاء:

ـ ديفيد، عندما أجدك بجواري أصبح في أحسن حال، أتوسَّل إليك لا تغب عنّي مطلقًا.

واحتضنتني برقة. كانت قصيرة، رأسها لا يتخطّى مقدمة ذقني. لففت ذراعي حولها وقلت بنبرة عذبة:

ـ أنا معكِ للأبد.

تمتمت:

ـ أتمنّى ذلك.

ومسحت على شعرها النّاعم، وطبعت قبلة فوق شفتيها.. رفعتها على ذراعي، ومددتها فوق السرير والخجل يكسُو وجهها كأنّنا سنفعلها للمرة الأولى.

غصنا في نوبة حبٍّ لم نمارسها منذ زمن طويل.. كنت محروما حقًّا من تلك اللّذّة غير المتاحة دائما بسبب

تقلباتها المزاجيّة وعدم استقرار حالتها النفسية.

بعد دقائق قالت وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة:

ـ توقُّف.. توقّف

اِنفصلت عن الحركة داخلها، كانت قد وضعت يديها الاثنتين على رأسها، وصدرها يعلو ويهبط بانتظام من التعب، وقالت:

ـ الصداع يشتدّ.

قُمت من عليها والخيبة تتملكني:

ـ هل آتيكِ بالطبيب

ردّت بارتباك:

ـ لا.. لا داعي لذلك.. سأكون بخير لا تقلق.

ـ أتمنّى ذلك.

ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا، عقلي اعتاد على تلك المواقف غير المناسبة. ارتديت ملابسي وقبل أن أخرج همست بصوتها الواهن المتردّد:

- ديفيد أنا آسفة.. كنت أود ّحقا إكمال هذا الأمر.

وابتسمتُ لها:

- لا عليكِ، كلّ شيء سيكون على ما يرام.

وجرتني الخيبة إلى الخارج، أتركها لتنام علها تجد بعض الرّاحة من هذا العالم اللّعين، بينما أذهب إلى الحمام لإنهاء الأمر على طريقتي الخاصة...

صمت في البيت كلّه كالعادة، فلا أحد يسكن حولنا ولا أحد يزورنا وليس لدينا خدم، ولم تنجب ماري أطفالاً لكي يصدروا الضوضاء طوال اليوم، فلا نستطيع النوم من مشاكستهم مع بعضهم البعض بلا كللٍ أو ملل، وعندما يلجأون لي للفصل بينهم أصرخ بهم بغضب «هذا يكفي».. أوهام.. أوهام.. كل ذلك لم يحدث

للأسف.. لم ينعم علينا الله بالأطفال، وتركنا نواجه ما تبقى من عمرنا بمفردنا، دون سند نرتكز عليه عندما تهتز الأرض تحت أقدامنا وتُلقي بنا في الجحيم.

جذبني صوت عصافير الكناري التي أحضرناها عن طريق أحد الرحالة القادمين من البرازيل. ماري مُتعلقة جدًّا بأصواتهم العذبة وتجلس بالسّاعات في الاستماع إليهم. على نغماتهم تشعر بالراحة والهدوء اللذين لا يأتيان إليها كثيرًا. أدخلت لهم الطعام والماء.. حيث نقدم لهم خلطة رائعة من بذور اللفت والفجل والشّوك، إضافة إلى حبّ الدّخان والشّوفان والسمسم والقنب، وتحرص ماري على إحضار الطعام لهم بنفسها بين الحين والآخر عندما نخرج معا للتسوق. إنّها عصافير مسكينة وضعيفة لكنّها تشعرك ببهجة الحياة وتقذف بداخلك السّكينة.

هبطت إلى القبو. لطالما أشعرني دخولي إلى هذا المكان بالوحشة، ورماني في مستنقع الذكريات التي أحاول دائما الهرب منها.. أبحث عن شيء يطمئن روحي فلا أجد غير معدات الصّيد، فهي السبيل

الوحيد لمقاومة هذا الملل والألم الذي يعتصر ماري ويعتصرني معها بلا رحمة.

في الماضي كنت أخرج دائما للصّيد بمفردي، بعدما رحل أبي الّذي كان يصطحبني معه إلى بحيرة «كينت وآفون» مُنذ أن كنت صغيرًا. علّمني الصّبر وكيفية الاستمتاع بالفراغ وتدبّر الأمور بهدوء، وهذا ساعدني فيما بعد لأنجح في عملي.. ومن وقت أتيت إلى مصر واصلت ممارسة هذا الاهتمام وحيدًا أيضا، فماري لا تطيق ممارستي لتلك الهواية، على الرّغم من تظاهرها طوال الوقت بعكس ذلك.

اختبرت الصّنارة ووضعت الحبال والطعم في الحقيبة ثم أغلقتها وصعدت.

لمحت ماري تهبط من على الدرج بخطوات متمهلة.. رفعت رأسي نحوها فابتسمت لي وقالت:

- هل تودّ تناول فنجان شاي معي

قلتُ مسرورًا:

ـ بكلّ تأكيد ولكن...

ـ ماذا؟!

ـ ألن ترتدي ثيابك؟

قالت بارتباك وقد بان الخجل على وجنتيها:

ـ بلى، سأرتديها فورًا... اِنتظرني في التّراس إلى أن آتيك

لم يمض إلا القليل حتى انتهت من إعداد الشاي وتقديمه لي، وحينها هتفت قائلا:

ـ يوم مثالي للصيد.

قالت بتهكم:

ـ كلّ أيام ديفيد مثالية للصيد.

ابتسمت لها وهي ترشف من فنجانها. كنا جالسين في تراس البيت الّذي شيّدته منذ أكثر من عشر سنوات،

في منطقة جديدة بعيدة ومنعزلة، تطل على البحر مباشرة بمدينة الإسكندرية الساحرة.

ـ هل ستأتين معي

أجابت دون تفكير:

ـ لا... الصّداع لم ينتهِ بعد ولا أستطيع تحمُّل حركة الموج.

ـ إذن ماذا ستفعلين في غيابي

ـ لا شيء... سأخلد للّنوم.

قلت منزعجًا:

ـ مرّة أخرى!

تمتمت باستسلام:

ـ مرّة أخرى.

قلت بتوسل:

ـ ماري، أريدك أن تعيشي معي وليس في أحلامك.

قالت بيأس:

ـ ليتني أستطيع.

لفحني هواء البحر البارد المُنعش وأنا أضع البُرنيطة على رأسي وأتقدّم نحوه بخطوات واثقة.. الجو رائع والشمس هادئة، وليس هناك إلا صوت الماء والريح الذي يهب بين الآن والآخر.

وضعت الحقيبة والصنارة في القارب الذي فككت حبله ودفعته إلى قلب البحر قليلا، ثمّ قفزت فوقه والماء يقطر من قدمي.. بدأت التجديف بهدوء حتّى لا أفقد قوتي سريعًا. أخذ القارب يعلو ويهبط مع الأمواج وهو يتقدّم إلى الأمام.

مضيت في التجديف حتى أصبحت في مكان ملائم للصيد، أبعد عن الشاطئ قرابة الألف متر.. استرعى انتباهي مرور صقر ضخم من فوقي بحركة مهيبة في السماء، ودار بخلدي ما الذي يفعله في أوقات فراغه؟!

فأنا أذهب إلى الصيد وهو ماذا يفعل؟! هل يعود إلى عشّه ليكون بجوار وليفته وأولاده الصغار؟ أم يظل حائرًا في السماء بلا دليل! بعد قليل ظهر سرب من الطيور تشق الغيوم العالية وهي تتّبع المسارات الخفية للرياح إلى أن غابت عن نظري.

وضعت الطُّعم في الخُطّاف وألقيت به في المياه. أنتظر أن تخدع السمكة الغبية وتعلق بالصّنارة. لا أدري لما خلقهم الله بهذا الغباء؟ أم أنها الطيبة وحسن النية! إنهم كائنات مسكينة وساذجة؛ كن رحيما بهم أيها المسيح وحاول بكل استطاعتك أن تنقذهم من فخي اللعين.

النسيم يهب رتيبا منتظما يذكّرني بأيام الصيف التي ولت، ولكن في تشرين الأول ليس هناك أمان، في أيّ وقت من الممكن أن يغضب ويثير غضبه الموج فينقلب عليَّ كما كان يفعلها دائمًا.. تشرين دائما مرعب وبائس يظل كالمتلصّص الخائف من البرد القارس..

غمزت الصنارة فشددتها مسرعًا، علّق بها سمكة صغيرة، فقلت لنفسي:

ـ لا بأس إنها مجرد بداية.

وبكل حماس وضعت طُعما آخر وأعدت الصّنارة إلى المياه، وبالفعل كانت بداية موفقة واصطدت كم لا بأس به من الأسماك التي وضعتها بالحقيبة أولا بأول.

وما أن انتهيت حتى كانت الشمس قد غربت، وما لبثت أن أضاءت المنارة كشافها، لكنها إضاءة لا تكفي، فقد أصبح البحر أسود على الرغم من صفاء القمر.. أشعلت الفانوس الذي بحوزتي.. ضوؤه كان كافيا لأتحسّس طريق عودتي.

بدأت في التجديف عائدًا، ولكن دون مقدمات هبت رياح قوية، اهتزّ القارب فجأة وهاج البحر وماج، بدأت الموجات في دفعة يمينا ويسارًا، حاولت الإسراع في العودة، تشبّثت بالمجداف محاولا السّيطرة على حركة القارب، لكن اهتزاز الموجات حال دون فعل ذلك

وأصبح القارب خفيفًا تلعب به الأمواج.. تركت المجداف وخطر لي هاجس مرعب وأنا أرتجف لنهايتي التي على وشك الحدوث.. تشبّثت بكلتا يديّ بجانبي القارب وبدأت الموجات في دفعه للدَّوران حول نفسه، وظهرت على سطح الماء دوامات متتابعة، وهدر صوت غير مفهوم حملته الرِّياح، راح يتعاظم ويتفاقم إلى أن لفَّ المكان كله ثم انخفض وهمس قرب أذني. كان الصوت لشخص ليس غريب عليّ لكنّي لم أتذكّرهُ، كان رخيما وخفيضا قليلا كفحيح أفعى يتردد صداهُ حولي ويكرّر:

ـ لن تعود.. لن تعود.. لن تعود..

ثم بدأ الصوت يعلو أكثر فأكثر.. تماسكت قليلا ورحت أجدف بكل قواي، وقلت لنفسي في تحدٍّ:

ـ لن أموت هنا... لا لن أموت.

اِندفعت في التّجديف كالمجنون هربا من الصوت اللَّعين ومن مصيري المحتوم حتى ابتعدت مسافة

كافية، وتنفست الصعداء عندما لاح الشاطئ أمامي، وبات لا يفصلني عنه إلا القليل.

هممت بترك القارب ومواصلة ما تبقى سيرًا على قدمي الخائرة، وقبل أن أفعل ذلك وبدون أن أدرك، ضربني شيء ضخم على رأسي بقوة، وهوَيت بظهري ليرتطم رأسي بحافّة القارب.. سال الدم تحتي وعيناي تدوران في الفراغ المظلم.. لم أتبيّن فاعلها ولم يكن هناك وقت لأتحرك، لأن الحياة بدأت تتلاشى مني تدريجيًا.

أَنْور كَمَال

طيبة

الاثنين.. الواحدة صباحًا

مات مُساعدي المخلص، وهذا جزاء من يفكِّر في التلاعب بي ويتناسى أنِّني أنور كمال ملك الألاعيب والخُدع.. قضيت عمري كله في بناء أسطورتي بين الناس، ولن أجعلها تهتز أبدا من أجل أيّ أحد مَهما كان.

عفوًا يا صاحبي سأتركك هنا بمفردك تنام بجوار أجدادنا العظماء الذين لم يبخلوا علينا بأيٍّ شيء وتركوا لنا الكنوز لنتمتَّع بها بعد رحيلهم. سأتركك هنا ليقال إن لعنة الفراعنة قد أصابته بعدما حاول السَّطو على ملكهم، الكثيرون سيصدقون ذلك وأنا أولهم.. لكن كيف تجرأت وفعلتها؟! معذرة سأعيد عليك السؤال بشكل أفضل: كيف استطعت أن تفكُّر في ذلك؟!

كَنَّت تعمل معي منذ سنوات طويلة وكُنت مخلصا لي بكل معنى الكلمة، لم تسقط في أيٍّ اختبار وضعته لك.. عبرت كل التحديات بنجاح، جعلتني أثق بك ثقة عمياء، أعطي لك ظهري وأسير مطمئنًا.. لم أكن أتخيل أن الطّعنة ستأتي من يدك أنت.. من البداية وأنا أشعر بشيء متغيِّر عندما وصلنا للمرحلة الأخيرة في الحفر. في اللحظة التي فتحنا بها المقبرة رأيت في عينك بريق الغدر، لم أهتم وواصلت عملي. رفعت المصباح لأعلى وأصبح باديا لنظري الآثار الذهبيّة الخاصة بالمقبرة، إضافة إلى الكنوز الأثرية من خشب الأبنوس، وعندما سلطت الضوء على وجهك رأيت في عينك لمعة عين الذِّئب، أقسم لك بأني خفت حينها منك.. كُنت أكذب نفسي وأقول بالتَّأكيد هناك شيء خطأ، لكني خبير في قراءة الأعين، لذلك كانت قراءتي دقيقة، فليس هناك أفضل من العين لمعرفة الأسرار. عندما تراجعت للخلف وأبيت أن تهبط أولا داخل المقبرة زاد الشك داخلي وتقدمت أمامك وأنا أنتظر طعنتك، كُنت متيقِّظا لك، لذلك حينما وضعت يدك في جيبك وهممت بإخراج سكين، استدرت لك سريعًا

ولكمتك في أنفك وفي فم معدتك ثم ضربات متتالية متفرقة في جميع أنحاء جسدك، ثم أمسكت رأسك الكبير وضربته في الجدار حتى فارقت الحياة. بعد فعلتك المشينة هذه يجب أن أعيد كل حساباتي وطريقتي في العمل.

التقطت وشاحي من تراب المقبرة وأزلت الغبار من عليه أضعه حول رقبتي، نفضت جلبابي ثم وضعت المصباح على قمة مدخل المقبرة حتّى يُنير لي المكان برمته.. عند نزولي أزحت جثّة مساعدي وهدان جانبًا، وتأملت ما وجدته أمامي حيث سرير ذهبي على شكل أسد، بجانبه صناديق ملابس ومؤن وزهريات جميلة مصنوعة من معدن المرمر، وأشياء أخرى، والجدران محمية بتماثيل حراس مستعدين للانقضاض على الغرباء.. رحت أبحث عن زيت الكاهن الذي لا مثيل له.. فتشت عنه في التابوت تحت رأس المومياء.. الأسطورة تقول إنّهُ موضوع في زجاجه صغيرة تحت رأس الملك.. لم أجد شيئا.. أعدت البحث مرة أخرى تحت السرير الأسدي. وجدت كرسيَّ عاج صغيرا

وبضعه صناديق، فتشت فيها ولا جديد غير بعض التماثيل الصغيرة والعديد من الأحجار الكريمة وقطع ذهبية وغيرها.. خاب ظني أيضا هذه المرة في العثور على زيت الكاهن، إنّه سلاحي الوحيد للتخلص من بحة صوتي التي أعاني منها منذ طفولتي.. ذهبت إلى كل الحكماء ووصفوا لي العديد من الأعشاب والتركيبات ولا فائدة، ظلّت نبرة صوتي واهنة وضعيفة.. لكن لا بأس فكل هذه الخيرات التي حولي ستعوضني بكل تأكيد عن إخفاقي وستسعد أخي.

لفت انتباهي لمعان شيء ما داخل زهرية صغيرة، وبرق في ذهني شيء واحد. أزحت بفرح بعض القطع الذّهبية لتبين ما تحتها، حيث كان يلمع لون شديد الحمرة اعتقدته لوهلة مرادي، ولكن خاب ظني، مجرد قطعة رائعة من الأحجار الكريمة.. انهمكت في تجميع القطع الأثرية الصغيرة والذهب وبدون أن أدري ارتطم حجر ضخم برأسي.. أحاول أن ألتفت فأتلقى ضربة قوية على ظهري.. أنهار على ركبتي وأحاول أن أمدّ يدي إلى موضع الألم فأحس اللزوجة وسخونة الدم..

يرتطم حجر آخر بظهري فأسقط بوجهي على تمثال صلب، ويسيل الدم أمام عيني. يخبو النّور، ويصير كلّ شيء حولي ضبابا.

مَارِي

ألمٌ فذٌّ

الثانية صباحًا

استيقظت من نومي، مُثقلة بحلم قبيح.. لم أجده بجواري كعادته.. حلمت أن زوجي مطعون بخنجر، ويحتضر بين ذراعي.. حلم مفزع ومخيف..

حاولت تجاهل فظاعة الحلم لكنّ عدم وجوده زاد مخاوفي. بحثت عنه في كلّ مكان في البيت. لم يكن موجودا. أين ذهب؟! لقد تأخّر الوقت كثيرًا وأنا خائفة ومرعوبة من البقاء وحدي.. الهواجس تعصف بي وتخبرني أنّه ليس بخير والقلق سيطر تماما عليّ، ما دفعني للاستسلام إلى أن مكروها حدث له.

فكرت في استخدام الهاتف وتبليغ السلطات الإنجليزية، لكن ما الذي سأقوله لهم؟ سأقول لهم لقد غرق في البحر.. لكن هل هو حقا في البحر حاليا؟ أم

أنه أتى وخرج؟ تجمد السؤال في ذهني فذهبت مسرعة إلى القبو أبحث عن معدات الصّيد، وأكلني الخوف عندما لم أجدها..

ـ لم يعد بعد..

وصبّرت نفسي قائلة:

ـ علّه قصد اشتراء الطعام والشراب

سرعان ما بُدِّدت جدران طمأنينتي:

ـ لكننا نملك الكثير ولدينا كل أنواع الخمور التي يحبها والتي لا يحبها.

أدبرت إلى جراج السّيارة، فكانت كما هي ساكنة وموتورها بارد، يا إلهي! وفتح الطريق للهواجس لتنهش بعقلي.

أخبرت نفسي: يجب أن أتماسك قليلا وأهدأ حتى يعود ديفيد.. بالتأكيد أنه بخير.. أنا واثقة من ذلك..

تذكرت أنني نسيت العلاج، اللّعنة يبدو أنه سبب كل هذا القلق والخوف، سأذهب لأتجرعه.. منذ سنواتٍ وأنا أحيا على المهدئات والمسكنات، فبدونهما لن يكون سوى الجحيم رفيقي.. وقبل أن أصعد لغرفتي ذهبت إلى القبو مرة أخرى..

أعود إلى غرفة نومي ومعي زجاجة نبيذ كبيرة، حشرت بها كل الأوراق التي وجدتها بالقبو، وأضعها على الأرضية بالقرب من السرير.. سأجن ديفيد بهذه اللعبة عندما يعود بالسلامة.. لم نلعبها منذ سنوات، كان هو من يصنعها لأجلي لكن هذه المرة سأفعلها من أجله هو.. أنا دائما أنانية وكسولة ولا أفعل أي شيء من أجله..

هُناك كمودينو عليه أباجورة صفراء، أفتح درجه العلويّ وأخرج من داخله قنينة صغيرة فيها دواء تمّ تركيبه خصِّيصًا لي في لندن.. آخذ ملعقة واحدة، ولإضاعة المذاق المر أتجرع كوبا من الماء.. يوجد الكثير من هذا الدواء لديَّ.. أفكر في ما سوف يحدث لو أخذت العبوة كلها دفعة واحدة، وأشرب كأسا كاملة

من الماء ومن ثَمَّ أستلقي وأنام إلى الأبد. كنت أتمنى أن يموت دماغي وكل شيء أخطأت فيه في حياتي يختفي.. يختفي.. يختفي وأختفي معه في دهاليز النسيان.

شعرت بالراحة قليلا بعدما انزلق الدواء في معدتي وبدأ مفعوله يعمل.. هدأت وبدأت في البحث مرة أخرى عن ديفيد في البيت.

أنا حقا خائفة ولا أريد أن أكون وحيدة، كلما تخيلت أنّني من الممكن أن أترك بمفردي في هذا البيت الصامت، يملأني الرعب، وتدفعني ذاكرتي إلى أماكن موحشة تكشف هشاشة دواخلي وتعري ضعفي أمام نفسي، فأنا عكس الناس كلما تقدمت في العمر خانتني التجارب، ولا أستطيع أن أمنع دموعي من التدفق ولا جسدي من التقوقع مكانه على روحي الذابلة.

أنا عاجزة وليس بيدي فعل أي شيء إلا البقاء وحدي قليلا، وهذا شيء يرعبني ويدفعني أكثر للبكاء. قلبي ينبض بسرعة فائقة وجسمي ينتفض ولا أستطيع

الوقوف ولا الكلام، إنّني ضعيفة ومسكينة وأستحق الإشفاق من الجميع، حياتي سوداء مليئة بالحزن والاكتئاب والاستسلام.

أهدأ قليلا وأتذكّر أنها أمطرت أمس، هطل المطر مع موسيقى الرعد وتلونت السماء بالعتمة والغبار.. سمعت وشاهدت ذلك في انقطاعات نومي.. نومي مضطرب وقصير وأستيقظ منه بسهولة، ويصحب ذلك صرخات عالية - في بعض الأحيان - وفي رغبة لأن يضمّني أحد لكي أشعر بالأمان، كنت أكبر في العمر ويكبر معي كل شيء حتى قابلت ديفيد.

أدرت الجرامافون على موسيقى هادئة واستلقيت فوق سريري بحثًا عن بعض الراحة والسَّكينة.. طافت بي ذكريات أليمة استعيد فيها كل ما هو مخيف في طفولتي بشكل لا شعوري.. دائما لا تكسرني إلّا ذاكرتي الممتلئة بالخيبات والحسرة.. يا إلهي كيف في وسع صور معطوبة في رفوف ذاكرتي أن تجرفني هكذا وتلقي بي بين نيران الألم.

« أمي.. عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وفي أثناء طريقها للعودة إلى المنزل، اغتصبها أحد رعاة الماشية، لتنقلب حياتها رأسًا على عقب، أجبرها والداها على الزواج بهذا الراعي الذي كان يدعى «ليوناردو» لتنجبني منه.. وبعد موت والدي تزوجت أمي بآخر وأنجبت أبناء آخرين.. نبتُّ بينهم كالزهرة المنبوذة، ونلت معاملة حقيرة من الجميع، وفي مقدمتهم أمي التي كانت تكرهني لأنّني أذكرها بحادثها الأليم مع الراعي، الأمر الذي سبب لي العديد من المشكلات النفسية، ما دفعني إلى محاولة الانتحار مرتين، ولكنني فشلت، وفي نهاية المطاف قررت الهرب من جحيم نظراتها القاسية».

أبذل ما في وسعي حتَّى أنسى، وأنسى أن أنسى.. الذكريات مثل الوشم الأسود الملعون، يظل مطبوعا على جلدنا ولو حاولنا إزالته تبقى آثاره وندوبه على أجسادنا، ليذكرنا بألمه حتى نفارق الحياة، وهو لن يفارقنا.

ظللت مستلقية في سريري لإضاعة الوقت الثقيل، وأنا أحاول أن أفكر في أي شيء حتى غفوت وحلمت:

«كان الطَّائر يسبح في المياه بريشه الأبيض ومنقارهُ الأسود، عندما وقفت على حافة البحيرة.. وجدت هناك رجلا في قاربه يجدف في رعب، لم أتبين ملامحه ولم ألتقط إلا جلبابه وطاقيته الصُّوفيَّة، لكن في نهاية الأمر تجاهلته وركزت مع الطَّائر... كنت شاردة وعابسة الوجه، وخطر في بالي أن أداعبه فاقتربت من الحافّة أكثر ومددت يدي، ففزع منّي وحرّك جناحيه في حركة مفاجأة أفقدتني توازني، فهويت في الماء بينما حلق هو في الهواء.

تخبَّطت في المياه بشدّة فلم أكن أجيد العوم، وجنَّ جنوني عندما رأيت زجاجة النّبيذ الضّخمة التي اصطحبتها إلى غرفتي تطفو أمامي، سأجن لاستعادتها ولكنّي عاجزة عن الوصول إليها.. حينما أدركت أنّني لن أستطيع النّجاة، شعرت بضآلتي وعجزي وسط هذه البحيرة الصّغيرة، الّتي بدت شاسعة لا نهاية لها.

ضعفت قواي ولم أعد أستطيع المقاومة واختفت الزجاجة من أمامي.. أتخبط وأطفو وأغوص، وفي أثناء ذلك لمحت الرجل الذي كان في قاربه يغرق هو أيضا، وبطرف عيني رأيت ديفيد على الشّاطئ يبكي بهستيريّة ويخرج مسدسا ويطلق النار على رأسه، وأنا أستسلم تماما للمياه.. بدأت أختنق وأخذ قلبي يخفق بسرعة بينما هناك أحدهم يسحبني إلى القاع.. وبدون مقدمات اسودّ كلّ شيء حولي.. سواد.. سواد.. سواد...».

فتحت عينيّ على يدي المطبقة فوق يدي الأخرى، كنت ألهث من هول الحلم المفزع، ولكنّي اعتدت على ذلك وتأقلمت عليه بمرور الزمن.. فالأحلام مهما كانت بشاعتها أكثر رحمة من الواقع.. أحدق في خاتم زواجي.. أتلمسه بأناملي ثم أنزعه عن إصبعي بلطف وأنظر في داخله على الحرفين المنقوشين على جدرانه الذَّهبية.. مرّت سنوات كثيرة على زواجي بديفيد.. ومرّت لحظات السّعادة سريعًا ولم تمرّ لحظات الحزن واليأس.

تسلّل ضوء إلى غرفتي.. مسحت دموعي وقمت مُتَّجهة نحو الشُّرفة..

عيني تلتقط بياض السماء واصفرار الشّمس القاتم الّذي يصعد ببطء كشعلة تتَّقد، وزرقة البحر الشاسع تجمل الصورة. شعرت بالبرد ينخر في جسدي العاري بالتدريج.. أزعجني هذا الإحساس لم أعد أتحمل نسمات الصباح الطّازجة فعدت إلى الداخل وارتديت ملابسي.

نزلت أتمشّى على الشَّاطئ وزجاجة النّبيذ الضخمة في يدي.. لم يكن هناك أحد سوى بضعة نوارس تطفو فوق سطح البحر. جلست على أحد الصُّخور، أحاول أن أفرغ كلّ الشّحنات السّلبية من رأسي، أحاول أن أستمتع بالمنظر الجميل الّذي رسمه الرّب بإتقان غير طبيعي.. هذا المكان يحمل لي العديد من الذكريات.. كنّا نجلس معا أنا وديفيد كلّ يوم هنا عندما تزوجنا، وكان يحب تقبيلي وأحب أن أحضنه.. كنّا حقا سعيدين، ولكن لا شيء يستمر على حاله، هكذا أخبرونا بأن الدنيا متقلبة وقاسية في معاملة السعداء.

لفتت نظري نقطة سوداء بعيدة وغير معتادة تتأرجح على سطح البحر، دقّقت فيها مليّا وأنا أقوم وأخطو بضع خطوات نحوها والموج يضربني، ووقعت الزجاجة الضخمة من يدي وأنا أصرخ من هول المفاجأة :

ـ ديفيد... إنّهُ مركب ديفيد... ديفيد... ديفيد...

المَأْمُور

الحياة الهادئة لم تبدأ بعد

السّادسةُ صباحًا

يد أحدهم تلكزني برفق.. سحر النوم يسيطر تماما عليَّ.. يد تلكزني.. عيني مستسلمة للنوم ورأسي مثقل بالكوابيس.. يد تلكزني وتهمس باسمي:

ـ حضرة المأمور.. حضرة المأمور

أيُّ خطأ ارتكبته في حياتي جعلني أتلقى هذا الإزعاج يوميا. فتحت عينيّ فطالعني وجه الشّاويش سيّد بابتسامته الخجلة. نظرت نحوه وأنا أتثاءب قائلا:

ـ خير..

ـ هناك إشارة مهمة أتت إلينا

ـ ما فحواها

ـ الذهاب إلى فيلا مستر ديفيد كاميرون حيث تعرض لحادث صباح اليوم..

ونهضت متثاقلا إلى مكتبي القابع بجوار غرفة نومي وتابع الشّاويش قائلا:

ـ لقد وجدوه ملقى به في قاربه وهو في حالة إغماء تام.. وقد طلب الحكمدار الاهتمام بالأمر وعدم التّقصير مطلقا وفعل كلّ ما يلزم.

ـ متى تمّ التبليغ

ـ البلاغ جاء من زوجته منذ دقائق.

ـ إذن جهز القوة.. سنتحرك فورا.

توليت مهمة المأمور في قسم الدّخيلة منذ شهر، ونظرا للإمكانيات الّتي تكاد تكون معدومة في المنطقة، تم تخصيص غرفة صغيرة داخل القسم لأنام بها إلى أن يتم بناء سكن خاص لي.

لست متزوجًا ولا أعول أحدا، أعيش بمفردي في هذا العالم الصغير لذلك كانت الأمور بالنسبة لي سهلة عندما تم نقلي إلى هنا.

ارتديت بذلتي العسكرية وأحكمت الطربوش على رأسي وتحسست سلاحي.

الطريق طويل والنعاس يسيطر عليّ طوال الوقت الّذي لا يمر كساعات الرمل المتحجرة.. تسقط ذرّة ذرّة لتصيبني بتخمة من الضجر.

مع مرور الوقت.. الناس القليلة بدأت أقدامها تدب في الشوارع، ونحن نتقدم لهدفنا المنشود عبر سيارة متهالكة بالكاد تسير، كانت من بقايا مخلفات حرب الإنجليز مع الألمان.

يشرد عقلي قليلا وأحاول عدم التفكير في أيّ شيء، أحدق في السحب التي فوقنا وأتأمل عظمة الخالق.. في العقد الثاني من الحياة تكون مرحلة عنق الزجاجة في حياة كل إنسان حيث الخيارات متعددة والخبرة

قليلة، وعندما أتيت من الريف إلى المدينة ضعت بها ولم أعثر من يومها على نفسي.. أضاعني الحب والفقر وقلة الحيلة.. في أوّل يوم لي بالكلية العسكرية، ظللت أجري وأجري حتى أصبحت عصيرًا من العرق والتراب والغبار، ولا يزال هذا الخليط برائحته الفجة يسيطر عليّ.

ـ أخيرا وصلنا

انتبهت لقول الشّاويش سيد الجالس بجواري.

الفيلا قائمة على مشارف البحر بمفردها.. مستر ديفيد هو أول من وطئت قدماه هذا المكان المهجور؛ في البداية بحثًا عن الآثار كما أخبرني الشّاويش سيّد، إذ كان يقول إن هناك مدينة غارقة في أعماق هذا الشاطئ، لكنه لم يعثر على أيّ دليل يقوده إلى تحقيق حلمه، فقرّر بناء فيلا في هذا الخواء معلنا اعتزاله مهنة التّنقيب للأبد، والتّفرغ لهوايته المفضّلة صيد الأسماك، ولكنه جعل منزله على أعلى طراز وأوصل به الكهرباء من شركة ليبون، والتليفون من الهيئة القومية

للاتصالات السلكية واللاسلكية، على حسابه الخاص، بعد معاناة لسنوات، إذ كان هذا الأمر مقصورا على بعض الشخصيات والأماكن المهمة فقط في المحروسة كلها، إلى أن بدأ الأمر ينتشر تدريجيا ولكن ببطء شديد.

الإسعاف كانت قد وصلت ونقلت مستر ديفيد إلى المستشفى، بينما زوجته وجدناها في انتظارنا، وعلى غير المعتاد لم تذهب معه، كانت في حالة انهيار تام وأعصابها مدمّرة من هول ما حدث لزوجها، لكن بقاءها أثار الشكوك حولها، ما دفعني إلى سؤالها مباشرة:

ـ لماذا لم ترافقي الإسعاف للاطمئنان على زوجك؟

بقيت تحدق بي للحظات حتى أدركت مغزى ما أرمي إليه، فقالت بفزع والدموع في عينيها:

ـ لو كنت تعرف حالتي ما سألتني هذا السؤال وما كنت شككت بي!

سألت في برود:

ـ وما هي حالتك؟!

ـ إنّني أعاني من مرض نفسي يدعى عدم تحمل المسؤولية، وكنت أعالج عند «أليكس هيدسون» الطبيب الإنجليزي المعروف، وتستطيع أن تعود إليه فهو يتابع حالتي منذ سنوات.

شعرت بالحرج من اندفاعي وتمتمت:

ـ أعتذر لك سيّدتي لم أقصد أن أشكّك بكِ.

ثمّ قلت محاولا تدارك خطإي:

ـ اسمحِ لي بأن أرسل معكِ أحد العساكر لكي يوصلك إلى المستشفى وسيقوم بكل الأمور المطلوبة هناك.. ليس عليكِ إلا أن تكوني بجوار زوجك.

ابتسمت لي بوجهها الخائف قائلة:

ـ شكرًا على تفهمك.

وطلبت من أحد العساكر مرافقتها، ثمّ طلبت من الشّاويش سيّد أن نذهب لنعاين القارب.

بداخلي كنت أحمد اللـه أنّ الأمر ليس به شبهة جنائية، وإلا كانت الدنيا قلبت علينا، فهو إنجليزي وكلّ إنجليزي ثمنه غال، ونتأت غصة في قلبي عندما أدركت كم أنّنا لا ثمن لنا في وطننا.

القارب مستكين على الشّاطئ وبداخله حقيبة مفتوحة، يبدو أنها كانت ممتلئة بالسمك ولكن حركة القارب دفعتها لبعثرة ما بداخلها في قاع القارب، ووجدنا أيضا صنارة صيد بها طعم صغير.. يبدو أنّه قرّر في لحظة ما الاكتفاء والعودة بعدما اصطاد الكثير والكثير، ولكن هناك غزير الدماء يغرق حافة القارب.

ـ يبدو أن البحر الهائج لقنه درسا قاسيا الليلة البارحة وهو يستحق ذلك بكلّ تأكيد.

قالها الشّاويش سيّد بتجهم.. استفسرت:

ـ وما الّذي يدفعك لقول ذلك

ـ إنّه عربيد، الكأس لا تفارق يده أبدا ولا يكفّ عن لعب القمار

قلت مستنكرًا:

ـ هذا ليس من اختصاص عملنا.

ـ كل الأمور تتشابك يا حضرة المأمور، ولكلّ فعل ردّ فعل.

ـ لكنه تشابك لا يعنينا في شيء.

ـ كل الأمور يجب أن تعنينا.

ـ نحن هنا من أجل أن نعرف ما الذي حدث وهل هناك جريمة أم أنّه حادث عادي ليس وراءه أحد.

ـ والحمد لله كان حادثا عاديّا مجردا، غضبا من الله.. اصطاد السمك ولم يشكر الله فغضب الموج منه وقلبه على ظهره ليسقط فوق حافة القارب ويموت..

ـ دع إيمانك الزّائد وتفسيراتك العبقرية على جنب، فهذا ليس وقتها.

ـ الإيمان معنا طوال الوقت يا حضرة المأمور.

هززت رأسي مؤمّنًا على كلامه وسألته محاولا تغيير دفة الحديث:

ـ هل كان له أعداء

ـ لا أعرف أكثر من الذي أخبرتك به.

ـ لكن يجب أن نعرف أكثر مما تعرف.

عدنا إلى القسم.. هاتفت الحكمدار بما وجدته هناك وأرحت باله فقال لي:

ـ استمر في التحريات حتى نتأكد تماما أن الأمر مجرد قضاء وقدر.

ـ لا داعي.. فهو بالفعل حادث قدري لا أكثر.

- وليكن.. لتستمر في التحريات.

كان قد تولى مهمة حكمدار الإسكندرية منذ أيام، أتى على خلفية سوء فهم حدث بين المندوب البريطاني والحكمدار السابق، ما أدّى إلى التضحية به ليكون عبرة للجميع، لذلك هو حريص على أن يظهر بشكل جيد أمامهم.

كنت متعبا ورأسي مثقل فخلدت للنوم مرة أخرى.

عندما ابتعدت عن أهلي نقص شيء داخلي عوضته بحب فتاة، وعندما اختفت تلك الفتاة من حياتي عوضته بالهروب من الجميع والبقاء وحيدًا. أغمضت عيني بحثًا عن بعض الذكريات الجيدة، وأملا أن يزورني طيفها في منامي.. كل ليلة أتمنى هذه الأمنية ولكنها كما الواقع لا تأتي أبدا.

لحظات وكان العسكري يهز كتفي برفق.

- سيادة المأمور.. سيادة المأمور.

فتحت عيني، رمقته بنظرة ناعسة فأفصح عما جاء من أجله قائلا:

ـ هناك خواجة إنجليزي بالخارج يريد مقابلتك

ـ من

ـ لا أعرف لكن يبدو أنّه من المهمين.

تمتمت بحنق:

ـ كل الإنجليز مهمون.

أعدلت ملابسي وخرجت له، أزاح البرنيطة من فوق رأسه كاشفًا عن صلعته المحفوفة بالشعر الأبيض، وعرفني على نفسه قائلا:

ـ مستر إدوارد خبير آثار بريطاني.

ـ أهلا بك.

أشرت له بالجلوس فجلس، وجلست خلف مكتبي:

ـ لقد وصلت للتو من إنجلترا على متن الباخرة التي وصلت ميناء الإسكندرية، وقصدت صديقي ديفيد لكن عندما ذهبت إلى منزله لم يكن هناك أحد، وقد أصابني القلق عليه، فهو لا يخرج كثيرًا من المنزل خاصة في هذا الوقت الباكر من الصباح.

ـ لقد تعرض لحادث وهو في المستشفى الآن.

قال بهلع:

ـ حقا.. متى حدث ذلك

ـ صباح اليوم.. كان في رحلة صيد ويبدو أنّ الموج كان غاضبًا فأطاح به

ـ يا إلهي.. وأين ماري زوجته

ـ إنها معه في المستشفى، لا تقلق كل شيء بخير.

ـ كيف لا أقلق.. إنّه أعز أصدقائي.

ـ سيكون بخير.

ـ وما عنوان هذا المستشفى.

ـ سأرسل معك أحد العساكر ليوصلك إلى هناك.

وقبل أن يهم بالرحيل سألته:

ـ مستر إدوارد.. منذ متى وأنتما صديقين

إدْوَارد

نبذة

تخرّجنا في جامعة «دورهام» عام 1899 وفي عام 1902 عملنا معا في متاحف إسكتلندا ثم إيرلندا، وفي نفس العام بعد أن أصبحت مصر تحت راية بريطانيا العظمى، كانت فرصتنا الكبرى قد آن أوانها سريعا، لكي نعبر عن أحلامنا وطموحاتنا في كتابة التَّاريخ.

أتينا أنا وديفيد إلى مصر كمبعوثين بريطانيين للكشف والتّنقيب عن الآثار في جنوب مصر ببني حسن، مقر مقابر أمراء مصر الوسطى، وذاع صيتنا عندما اكتشفنا آثار تعود للملكة حتشبسوت في مقبرة بالدّير البحري، وتوالت الاكتشافات بعد ذلك.. حتى حلّ عام 1909 وبعد عدّة شهور من البحث والتّنقيب، استطاع ديفيد الوصول إلى مكان مقبرة جديدة في وادي الملوك.. احتفظ حينها بكل التفاصيل لنفسه ولم يبلغ أيّ أحد حتّى أنا واكتفى بالقول: «إنّها مقبرة لم تمس من قبل».

كان يعمل بمفرده كثيرا، خاصة في اللّيل بعد رحيل الأنفار والمساعدين.. بالتّأكيد لم يكن يواصل الحفر لكنّه كان يفعل شيء أكبر من ذلك لم أستطع معرفته حينها.. وفي يوم ما هاجمه أحد الأشخاص وضربه على مؤخرة رأسه، وسرق منه كل البرديات والخرائط الّتي كان قد اكتشفها توًّا.

سقط ديفيد في الغيبوبة لمدّة ستّة أشهر، وعندما عاد إلى وعيه عانى فقدان الذاكرة. كان فُصل من عمله فذهب إلى العيش في ريف بريطانيا ومعه زوجته وأخته الوحيدة التي تصغره بسنوات، بحثًا عن حياة هادئة تناسب ذاكرته الخاوية.

لكن الذكريات الحديثة كانت فظيعة وطاردته في كل مكان وبقي متألما منها طوال حياته، فسوء حظّه لم يتوقّف بعد.. أقدم على استثمار أمواله في البورصة فتعرض لخسارة فادحة وأعلن إفلاسه، بينما انتحرت أخته «كيت» بعدما تركها خطيبها، وماتت زوجته «كاثرين» بعد أخذها جرعة زائدة من المخدّر.. لقد خسر كل شيء، شرفه وعمله وعائلته، واحدا تلو الآخر.

اختفت المعلومات عنه لمدّة خمس سنوات متواصلة.. لا أحد يعرف ما الذي حدث له خلالها، وفي عام 1915 ظهر من جديد ولكن بشكل مغاير.. عاد إلى مصر ومعه ماري والكثير من المال الذي لا يعرف أحد مصدره.. لم أهتم بفكرة من أين أتى بالمال، بل كان تفكيري كله من أين أتى بها؟!

لم أقل شيئًا للمأمور عن ديفيد أكثر ممّا يعرفه هو عنه، وتركته بعدما كلف أحد العساكر باصطحابي إلى المستشفى الذي يرقد فيه صديقي العزيز.

فريد كمال

ماذا حدث؟! وما الّذي سيّحدث؟!

الثّامنة صباحًا

طال الانتظار وأخي لم يعد.. السّاعات تمرّ والقلق عليه يزداد.. كان مقرّرا له العودة قبل مطلع الفجر، والآن عقارب ساعتي تتجاوز الثّامنة.. أخشى أن يكون قد أصابه مكروه، ففقدانه سيكون فادحا.. سأكون خسرت أخي وخسرت المحرك الأول لتجارتنا. حالتي الصحية لا تسمح بالبقاء في محيط الأتربة والغبار، الرّبو قيد حركتي بشكل كبير، ومنعني من مساعدة أخي الّذي ألقيت عليه الحمل الأكبر في استخراج الكنوز من باطن الأرض، وترك مهمة البيع واستلام النقود لي.

الوقت ينزف وقلقي عليه لا يتوقف، لذا لم يكن لدي أي خيار، فكرت في انتظار باقي رجالي الذين ذهبوا من أجل تسليم بضاعة تخص تجارتي في الخشب،

ولكن في النهاية غيرت ملابسي وتحركت بسيارتي نحو قلب الصحراء.

استغرق الطريق نحو ساعتين على عقارب ساعة جيبي الذهبية.. أوقفت الأوتوموبيل ونزلت وأنا أضع منديلا فوق فمي وأنفي خوفا من غدر الأتربة والغبار.

وقفت على باب المقبرة بحرص وتقدمت إلى الداخل بحذر وأنا أهتف:

ـ أنور.. أنور...

لا مجيب! أشعلت عود ثقاب، أنار لي جزءا من الحيز.. وجدت مصباحا ملقى بإهمال فأشعلته.. المكان مغلف بالدّخان فأعدت وضع المنديل على أنفي، ونزلت تدريجيّا من أعلى الدّرج.

أصابني الهلع عندما سقطت عيني على جسد أخي وهو مسجيّ فوق تربة المقبرة.. هرولت نحوه أبحث عن الحياة به.. ضاع نبضه وشعرت بالضياع معه.. أبعدت المنديل عن أنفي وأنا أبكي، تدريجيا شعرت

بالاختناق ولم أستطع التنفس، وعندما هممت بإعادة المنديل مرّة أخرى على وجهي، وجدت نفسي أسقط لاإراديا على الأرض بجوار جثّته كأن حركتي قد شلت... حاولت وضع يدي على سطح الأرض لأرفع جسدي فغاصت أصابعي في الهواء، لم أستطع التحرك فقد شلني الخوف، نضح العرق البارد من وجهي، وثقل صدري الذي جاهد التنفس طلبا للهواء

ـ سيكون أمرا موحشًا أن أموت هنا.

وتلاشت أنفاسي وسقطت في الظلام الكثيف...

ماري

ليس لغيابه حدّ مدبّب

الواحدة ظهرًا

قال لي الطبيب إنه أصيب بارتجاج في المخ ومن المحتمل أنّه قد سقط في غيبوبة لن يفيق منها الآن، نتيجة تعرضه لضربة قوية على رأسه، أو ارتطام رأسه بشيء صلب سبّب ورمًا في الجمجمة، ويؤدي هذا الورم إلى ارتفاع الضغط في الرأس بشكل كبير يؤدي إلى حالة فقدان وعي عميق.

ومن ثمّ قام الطبيب بفحص بؤبؤ العين وغرس حقنة دفع محتواها في عروقه ولم ينبس جسده بأيّ شيء، ولكنّه طمأنني بأنّه بخير أو سيكون بخير.. لم أصدقه، ورحل وتركني أحارب هواجسي المخيفة بمفردي.

ديفيد أرجوك لا تتركني، سأعود يتيمة مثلما كنت قبل أن يجمعنا قطار السادسة المتجه إلى نتينجهام

فورست في طريق عودتك لمتابعة حالتك في منتجع دكتور هيدسون.. أخبرتك أنّني أيضا ذاهبة إلى هناك، لم تحاول التّطفل ومعرفة سبب ذهابي وأنا أيضا لم أهتم بمعرفة ما الذي حدث لك.. ومن هنا نشأت الراحة بيننا، فكلانا يعرف أن الآخر مر بظروف صعبة فقدرنا ذلك ولم نغدق على بعضنا مشاعر الشفقة القذرة.. كنت محظوظة؛ مواعيد متابعتك السنوية كانت في نفس الوقت الذي ذهبت فيه إلى هناك..

ديفيد لا تتركني.. واتركني أتأمل وجهك المستكين كوجه طفل صغير لم يعرف الهم ولم تحتفظ ذاكرته الرخوة بأيّ ألم أو خوف.. أنا لم أملك مثل هذا الوجه يوما ما من حياتي.. وجهك هو الاتجاه الوحيد الذي لا أحيا إلّا نحوه.. أنت نور قلبي المعتم وشربة الماء التي لن أظمأ بعدها أبدا.

أبكي قليلا وعندما أهدأ أسند ظهري إلى مقدّمة المقعد الّذي أجلس عليه بجواره، وتطوف بي بعض الذّكريات.

أتذكر أنني كنت طفلة سهلة، تلعب بألعابها دون ضجة وتذهب إلى الفراش. ولكن كان لديّ صعوبة بالغة في الدخول في النّوم وصعوبة أشدّ أيضا في البقاء نائمة.. كانت محاولة الذهاب إلى النّوم يوميا عبارة عن مشاجرة حامية، لذلك لم أحظ بهذا الوجه قط.

دائما أرفض أن ألبس شيئًا ليس ورديّا أو قرمزيًّا.. أرفض أن أرتدي ملابس بياقة مرتفعة.. أرفض الجوارب.. لماذا؟! لا أدري أنا فقط لا أريد ونتيجة لذلك تكون خياراتي في الملابس محدودة للغاية، وكل الجهود لجعلي ألبس ملابس بألوان أخرى كانت فاشلة.. حاول ديفيد مرارًا وتكرارًا منذ أن تعرفت عليه أن يجعلني أرتدي فستانًا أصفر أو أزرق وفشل، وفي نهاية الأمر استسلم وقال لي:

- ارتدي ما تحبّين.. المهم أن تظلي بجواري.

الآن أنت من يجب عليه أن يظل بجواري.. لن أغفر لك أبدا لو تخليت عنّي وتركتني في هذا العالم المخيف وحدي.. أنا لا أكتمل إلّا بك، فلا أحد يعرف كيف

يشعلني ولا يطفئني ولا يصلحني إذا حدث بي عطب غيرك.. أنت الوحيد في هذه الدنيا الذي يملك كتالوج عملي، وتعرف كيفية حفظي بشكل جيد بعيدا عن سخافات الحياة ومعاكستها، والأهم أنك تعرف كيف تحميني من ضرباتها القاضية.

فريد كمال

الأمور تتعقد

الواحدة ظهرًا

إضاءة الفانوس أغشت بصري بمجرّد أن عدت إلى الحياة وبدأت الحركة تدب في أوصالي.. رأسي يؤلمني، فالصداع يفتك بي ولا يكل ولا يمل من ركل أركان جمجمتي، والغثيان بدوره يدفعني لأتقيأ عدّة مرّات بشكل متتال دون إعطائي مساحة للراحة، حتى طردت كل محتويات معدتي قسرا.. معدتي فارغة تماما والألم يزداد بها بلا رحمة.. ما الّذي يحدث لي؟! أنا لا أفهم شيئًا، لم يسبق أن مررت بشيء كهذا من قبل، هل هذه هي لعنة الفراعنة التي يحكون عنها؟! مستحيل أن يحدث ذلك! إنّه وهم لا أساس له من الصحة، لقد أكد لي أنور ذلك، ولكن لعل الوهم أصبح حقيقة... يا الله أنقذني من هذه الجحيم، لا أريد أن أموت هنا..

مددت يدي لأتناول طربوشي وأنا أحدق في جثة أخي.. انتبهت أذني لصوت غير مألوف وجال بخاطري شيء واحد.. التفت نحو المصدر.. كما توقعت.. أفعى ضخمة غير منتبهة لي، فحيحها يصم سمعي ويهتك عضلة قلبي خوفا.

تركت يدي الطربوش بهدوء، وبصعوبة بالغة وقفت على قدمي المرتعشة وبدأت في الصّعود من هذا القبر.. خطواتي بطيئة والتّعب والإعياء يسيطران تماما على كل جزء بي.

لا أعرف كم مرّ من الوقت وليس لديّ وسيلة لمعرفة ذلك.. أبدأ بالخروج من فوهة هذه الجحيم، وأسير بعيدا وأنا ألهث ككلب متعب جائع تركه صاحبه في الفراغ. تترامى الصّحراء الواسعة أمامي ولا يوجد شيء حولي غير الرمال والكثبان والأحجار والخواء وصفير الرياح.. طريق العودة طويل وليس لديّ أيّ أمل في إنجازه.

سيارتي واقفة كما تركتها.. أحاول أن أنطلق بها لكنها ترفض الانصياع لرغبتي، بعدما أصابها عطب في المحرك.. حاولت كثيرًا إصلاحه حتى وصلت ليقين أنّه لا أمل في الاستفادة منها. تركتها وشرعت في إكمال طريق عودتي سيرا على القدمين.. بالتأكيد سيكون أفضل من البقاء والموت هنا بمفردي.

الشمس حارقة والعرق ينثال من كل جزء من جسدي.. جلست أستريح لبرهة ثم أكملت السير الذي لا ينتهي بينما الوقت ينقضي، وأخاف أن يدركني الليل هنا فأفقد إلى الأبد فأسرعت في المشي.. مر القليل من الوقت ومعه زاد الطّين بلّة عندما قامت عاصفة رمليّة قويّة، وحام صقر من بعيد فوق رأسي.. سمعت صوتا خافتا شبيها ببكاء طفل ثمّ تبعه صوت الذئاب... حاولت تلثيم وجهي بخلع جاكت بذلتي لأحمي أنفي وعيني من الغبار، خوفا من نوبات الربو القاسية. اشتدت العاصفة وأحسست أن الرياح هي من تسوقني إلى مصيري المحتوم.

بعد نصف ساعة ظهر في الأفق دوّامة سوداء من الرمال تزحف نحوي ببطء، وصفيرها يشتد حتى سد أذني، ورحت أترنح من جديد، ووابل من الحصى والحجارة الصغيرة يرجمني.. اعتصر الرعب قلبي الذي زادت دقاته بشكل هستيري وأدركت أن النهاية بدت قريبة.. وقلت لنفسي: كلها دقائق وسينتهي أمري وألحق بأخي العزيز في عالمه اللامعروف.

أسقط على الأرض وأنا مستسلم لنهايتي.. أغمض عيني من العاصفة وأترك جسدي للصقر الذي أشعر بأنّه على مقربة من رأسي.

إدوارد

حنين

الواحدة والنصف ظهرًا

كنت أحبها حبًّا لا مثيل له... لا... لا... ما زلت أحبها...

عام 1915 أتت معه على متن السّفينة بعدما اختفى لمدة خمس سنوات، وحينها كان الثراء قد ظهر عليه بشكل لافت، فتغيرت ملابسه وبرنيطته إلى أفخم الأنواع وأرقها.. حلق رأسه تماما وذقنه أصبح كاكومي واستغنى عن الشعر الطّويل واللحية الكثيفة.

مذ رأيتها معه تشبك يدها في يده ويسيران في طريق العودة إلى البيت، وهي تبتسم له برقّة وتعابير وجهها تشكل صورة فريدة من الجمال الخلّاب، وجدت نفسي قد وقعت في حبّها.

أخبرني أنها زوجته منذ أربعة أشهر، وأنّه تعرف عليها في منتجع «مستر هيدسون» في أثناء ذهابه لمتابعة

جلسات علاجه السنوي، وقد وقع في حبها يوم أن قالت له:

ـ هناك دائما شيء جميل سيحدث.

ولحظتها شعر بأنّها هي الشّيء الجميل ألّذي سيحدث له وقد كان.

طرقت الباب ودخلت.. كانت ماري جالسة بجوار سرير ديفيد، والحزن يطبع تفاصيله على وجهها الجميل.. بادرتها بقولي:

ـ مساء الخير.

قامت من مقعدها بوهن وهي تمد يدها إليّ لألتقطها، وتقول بحزن:

ـ مساء الخير.

ـ ما أخبار ديفيد

هزت رأسها بالنفي ثم قالت في أسى:

ـ لا أعرف.

ـ ماذا؟!

أجابت بعصبية:

ـ كما ترى.. إنّه ليس بخير.

هززت رأسي متقبلا كلماتها..

ـ وماذا قال الطبيب

تنهّدت بحنق ثمّ قالت:

ـ غيبوبة.. ولا يعرف متى ستنتهي.

وقلتُ في استرسال:

ـ لقد عرفت الخبر بمجرّد وصولي إلى منزلكم، وذهبت إلى مقر الشرطة للاستفسار عما حدث، فأخبرني المأمور بأنّ سوء الأحوال الجوية هو سبب الحادث،

واصطحبني أحد العساكر إلى هنا.. كان الخبر قاسيًا جدًا عليّ.

ـ لن يكون أشد قسوة من وقعه عليّ أنا.

ـ أنا في غاية الحزن من أجله.. طوال عمره قدره ليس بالجيد.

وعادت ماري إلى مقعدها.

ـ ماري.. هل ما زلتِ متعبة

أجابت كالتّائه:

ـ لا أنا بخير.. لا لست بخير.. لا أعرف..

ـ هل ما زلتِ تذهبين إلى الطّبيب

ـ نعم ولا أشعر بأيّ تحسن.

ـ والصداع

ـ إنّه صديقي الأبديّ.

- بإمكانك الذهاب للبيت من أجل الراحة، وأنا سأبقى بجواره.

قالت بحدة:

- لا.. لن أتركه أبدا ولو للحظة واحدة.

هل ما زلتِ تحبينه؟ سحقا لكِ وله.. أنا أحبّك أكثر منه.. أحلم بكِ كل ليلة.. أتخيّلكِ وأنت في أحضاني وتهمسين لي «أحبك».

- كيف أستطيع مساعدتك

- أن تتمنّى له الشفاء العاجل ويستيقظ من غفوته سريعا.

- سيكون بخير.. فقط تماسكي قليلا، فالرب معه ولن يتركه.

هبط الصّمت علينا وقطعته بقولي:

ـ أنا سأقيم في فندقي المعتاد.. لو احتجتِ أيّ شيء ستجدينني هناك

وقالت بامتنان:

ـ شكرًا إدوارد.. وأرجوك اغفر لي سوء طريقتي في الحديث معك.

ـ لا عليكِ.. أنا أقدر ما تمرين به.

مددت يدي وسلمت عليها ثم نظرت في عينيها.

ـ سأكون بجوارك دائما.

وتركتها ورحلت.

أعود إلى مصر أخيرا وتحديدا الإسكندرية بعد كل تلك السنوات.. هجرتها في 1917 وها أنا بعد أكثر من عشر سنوات أعود إليها، ويشتعل الحنين داخلي لكل شوارعها، فهي من المدن القليلة التي ترحل عنها ولا ترحل عنك.

رحت أتجول في جوها الجميل المنعش والمتقلب أيضا في بعض الأوقات.. أمر بشارع بيرونا وأقف أمام الجدار المقام في مدخله.. أتأمل روعة النحت حيث تمثال الإله سخت المتجسد على هيئة رأس أسد.. وتتبعت سيري حتى صبّ بي الشارع في ميدان صغير ممتلئ بمحلات المانيفاتورة.. أخذت أمتع عيني بالنظر إلى أرداف النساء الملتفة بالملاءات السوداء وهن يمشين بدلال، إنها دائما كبيرة ولافتة للنظر، والنساء يعرفن كيف يبرزن تلك القطعة الساحرة للمتأملين. عندما شبعت اتجهت إلى اليسار فكانت تصطف بعض المساجد التي أبدع المصريون في فن معمارها، وتحديدا مسجد إبراهيم باشا، وفي الركن الشمالي الغربي يوجد مسجد طربانة ومسجد الشوربجي، والذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام 1757. في النّهاية رحت لمعشوقي الحقيقي البحر. أسير بلا هدف بمحاذاة الموج الهادئ، فتهاجمني تلك الرائحة النفاذة التي تذكرني بأيام ولت ولن تعود مجددا... ماء الإسكندرية له سحر لطيف خاصة في المساء، يكون مثيرا للبهجة ومريحا للنفس. اتخذت مكاني على

إحدى الصخور وجلست أتابع جنون الموج وحركة مراكب الصيد.

فريد كمال

الأمور تتعقد

الرابعة عصرًا

استيقظت على شهقة وسعال وذرات الرمال تخرج من حلقي وفمي.. أسحب أنفاسي بصعوبة مصحوبة بألم في صدري.. يمر بعض الوقت وأنا على هذه الحال ثم أرتاح قليلا..

وجدت نفسي مستلقيا على قطعة من الخيش ويدي تحت رأسي شبه متوقفة من قلة الحركة، يبدو أنّني نمت كثيرًا.. دارت عيني في الخيمة المقفرة.. ليس هناك أحد وحاولت التذكر بعصر ذاكرتي كيف أتيت هنا؟ وجاهدًا تذكرت أنّني كنت أسير في الصحراء عندما هبت عاصفة رملية، ولكن يبدو أنّ أحدهم أنقذني.. من يكون يا ترى؟! من أنقذني من عين الصقر وأسنان بن آوي؟! من منحني الحياة مرة أخرى؟!

قمت من مرقدي متثاقلا أحاول استجماع قواي الخائرة.. أسير نحو الخارج.. أجد رجلا عجوزا أبيض الشّعر والذّقن، جالسًا يتأمل الفراغ أمام النار التي يتدفّأ عليها، وبجواره عنزة هزيلة تضرب بحوافرها في الأرض.. لفت انتباهه قائلا:

ـ السّلام عليكم يا شيخ.

التفتَ نحوي وردّ مبتسمًا:

ـ وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.

وقام من جلسته وسألني بلهفة:

ـ كيف حالك يا بني

ـ الحمد لله أنا بخير.

وهزّ رأسه قائلا:

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ـ شكرًا لك.. لقد أنقذت حياتي.

ـ لا تقل ذلك.. الشكر يكون فقط لله.. هو من يصيبنا وهو من ساقني في طريقك لأنقذك.

تمتمت:

ـ ونعم بالله.

ـ لقد جهّزت لك الطعام.

وبدون انتظار ردٍ منّي، تقدم الشيخ أمامي متجها إلى داخل الخيمة قائلا:

ـ تفضّل معي.

تتبعت خطواته، وبالداخل فتح صندوقا صغيرًا وأخرج منه كسرة خبز والقليل من الملح، وقدّمه لي وهو يشير لي بالجلوس على قطعة الخيش.. فجلست.

ـ أعرف ما الذي تقوله في قرارات نفسك الآن.. ما هذا الطعام؟!

قلتُ في استنكار:

ـ لا لم أقل ذلك ولن أقول مثل هذا الهراء إطلاقًا.

ـ أنا رجل عجوز وفقير ليس لديّ عمل ولا أيّ مصدر للرزق.. ولم يرزقني اللـه إلا بهذا الطعام.

ـ سيرزقك اللـه بالكثير كن واثقا من ذلك.

ـ لو لم أكن واثقا ما انتظرت كلّ تلك السّنوات، حتى بعد ضياع عنزتي الثّانية.

ـ الخير قادم بإذن اللـه.

تناولت الطّعام في صمت، وحينما هممت بالمغادرة أزعجني العجوز بقوله بأنّه سيقودني إلى طريق العودة، ولن يتركني إلّا عندما يطمئن بأنّني أصبحت في أمان.

أريد أن أعود إلى أخي وآخذ جثته معي، وأخشى أن يفضحني هذا الرّجل، وأخشى أكثر من العودة بمفردي،

فأنال نفس مصير أخي وتقتلني الأفعى.

- شكرا لك على كل ما قدمته لي.

- لا تقل ذلك فأنا لا أصنع شيئًا من أجل أحد.. بل من أجل اللـه.

كانت كلمات العجوز تثير فيّ الراحة والطّمأنينة ولم يكن لديّ أيّ خيار آخر، ما دفعني للقول:

- أريد أن أكافئك.

- مكافئتي عند اللـه هو يعلم مقدارها.

- ستساعدني في شيء ما وستنال كل ما تريد.

وقال الشيخ مازحًا:

- هل ستعطيني كنزًا؟

- كان هناك كنز.

جحظت عين العجوز وهو يحدّق بي وتمتم:

ـ حقّا ما تقول؟!

ـ لكنه سرق ودفع أخي حياته ثمنا لهذا.. تعال معي وسترى بنفسك.. لكن قبل أيّ شيء، هل ستحفظ سري

قال بتوجس:

ـ أعرف طبيعة المهمة أولا ثمّ أقرر.

ـ قبل أن تعرف طبيعة المهمة، هل تعرف كيف تقتل الأفاعي

اقتربنا من المقبرة وتقدّم العجوز معي بعدما شرحت له الوضع كاملا.

طلبت منه النّزول والإتيان بجثمان أخي، لأن الأتربة تهيج علي الحساسية وتشعل الربو.. نفذ على الفور، لكنه قال وهو في الأسفل:

ـ تعال هنا.. يوجد شيء يهمك.

وضعت منديلا على وجهي ونزلت.

ـ أُنظر هناك.

المقبرة فارغة تماما إلّا من التوابيت والتماثيل الضخمة التي يصعب نقلها.. نحن نهتمّ فقط بالقطع الصغيرة الخفيفة التي يسهل حملها وإخفاؤها.. وقلت في غضب: سرقوا كل شيء الجرذان. من فعل ذلك؟ ومن كان يعرف بوجود تلك المقبرة؟

أشار لي العجوز نحو أحد الأركان حيث يوجد شيء يلمع.. اقتربت ثم اقتربت منه أكثر وقربت الضّوء منه فبدت لي قطعتان من النرد موضوعين على الرقم 6 والرقم 1. تناولتهما في يدي أتفحصهما.. كانتا مصنوعتين من خشب الزّان.. ظللت للحظات أحاول استيعاب ما يدور في عقلي.. أنا حقّا لا أصدق ما تراه عيني.. وجال بذهني شيء واحد.. هو! معقول.. لكن كيف؟! وهل كان وهدان يعمل معه طوال الوقت ويخدعنا؟! أيّا كان لن تفلت مني أبدا أيّها الكلب.

ساعدت العجوز في نقل جثة أخي إلى السيارة ثم قلت له:

ـ هذه المقبرة أصبحت ملكًا لك.

ـ حقّا؟!

ـ نعم أنا جاد في كلامي.

ـ وهل تعتقد أنّ شيخًا عجوزًا مثلي سيعرف كيف يبيع تلك التماثيل الضخمة؟

ـ ستجد لها حلا لا تقلق.

ـ أنا أريد ما اتفقنا عليه.

ـ ليس معي المبلغ الآن.

ـ سآتي معك لآخذه.

هززت رأسي في استسلام:

ـ كما تريد.

ـ ساعدني أولا في إصلاح السيارة حتى نغادر.

- تحت أمرك.

قضينا ساعتين في التصليح، وعندما انتهينا أشهرت مسدسي في وجهه وطلبت منه التراجع فورا، لكنه رفض وحاول الهجوم علي والغضب يسطع من وجهه، وفي لحظة ارتباك مني أطلقت الرصاص على قدمه فسقط في الحال يتوجع.. وجدت نفسي أتجه نحو سيارتي، أدرت محركها وانطلقت مسرعا تاركا إياه غارقا في دمائه يتألم.

إدوارد

فقاعة صابون

العاشرة مساءً

الإرهاق كان هو كل ما أريد التخلص منه عندما اتجهت إلى فندق سان ستيفانو الرمل عبر خط ترام شوتس، الذي يعمل على مدار الساعة.. كنت معتاد على النّزول بالفندق قبل مغادرتي لمصر.. كنت أنا وديفيد نلعب البوكر في الكازينو الخاص بالفندق يوميا عندما عملنا في الإسكندرية حيث كان الفندق يعدّ من أكبر وأهمّ الفنادق في مصر، يحوي أكثر من 100 غرفة، مسرح، قاعة احتفالات وشاطئ خاص وكما كان الكازينو الملحق بالفندق مشيدًا على الطراز المعماري لمنتجعات جنوب فرنسا الترفيهية.. ويعد الفندق محلا لتجمع نخب المدينة من الأثرياء والشخصيات العامة ومنهم أفراد من الأسر المالكة في مصر وبريطانيا.

هنا كنا نتعرف على العديد من النساء ونضاجعهن معا في غرفة واحدة.. هنا كنّا مؤمنين بأنّنا لا يجب علينا الارتباط بمن نمارس معهن الجنس، لاقتناعنا بأنّ أنواع النساء كثيرة جدًّا ويجب تجربة أكبر قدر منهنّ، وممارسة الجنس ليست إلا ترجمة للطّاقة الكامنة داخلنا، تدفعنا لتذوّق اللذة المحرمة ومواصلة الحياة بنشاط كبير.

أيّام رائعة خانها بزواجه بماري، الذي نبض حبها داخلي وكبر وتمدّد تدريجيًّا، وتفرقنا يوم أن اشتد حبها في قلبي ولم أعد أطيق رؤيتها معه.. قرّرت أن أبتعد وأترك مصر وأعود إلى إنجلترا.. هبطت إلى قاع الحزن ولم أطفُ منه إلّا في أحضان المومسات، محاولا البحث عن النّسيان الذي رفض كل توسّلاتي حتّى يسقطها من ذاكرتي، ولا يزال يرفض بشدّة.. أراها في كل مكان وكل لحظة.. إنّها لعنة عجزت عن التخلص منها ومن ألمها.

أعطاني موظّف الاستقبال مفتاح غرفتي المعتادة رقم 16 دون أن أطلب منه ذلك، فبسبب قدمه في المكان

كان يعرف رقم الغرفة التي أريد.. هذا الرقم ارتبط بي أنا وديفيد بشكل هستيري.. كنا نعتبره تميمة حظنا.

صعدت إلى غرفتي وكلِ رغبة في الارتماء على السّرير والغوص في أعماق النّوم.

منذ شهرين أرسل لي ديفيد خطابة المعتاد.. خطابتنا لم تنقطع قط، ظللنا نتبادلها على مرّ الأعوام رغم قلتها، لكن خطابه الأخير كان غير عاديًا، فيه أخبرني بأنّه توصل إلى خرائط أكيده تثبت صدق ما كان يؤمن به منذ عودته إلى مصر.. عندما عاد ليحدث اكتشاف عظيم، حيث مدينة أثريّة غارقة تحت مياه البحر المتوسط. اشترى قطعة أرض كبيرة قرب المكان الذي خمنه، وراح يصرف كل ما يملك في سبيل إثبات صدق كلامه لكنه لم يجد أيّ شيء وأصيب بالخيبة المريرة، وحاول أن يتناسى الأمر فترة.. كنت أظن أنّه صرف النظر عن حلمه ورضخ للأمر الواقع، ولكن ها هو الآن يعود إلى هوايته القديمة في صيد الكنوز، غير أن هذه المرّة ليست من باطن الأرض، بل من معدّة البحر. طلب منّي العودة على وجه السرعة حتّى أساعده في

عرض الأمر على السلطات الإنجليزية، لكي يحصل على التمويل والدعم اللازم من أجل البحث عن حلمه في أسرع وقت.. حجزت تذكرة على متن سفينة من ميناء ليفربول قاصدًا ميناء الإسكندريّة.. أتيت بلا حقيبة ملابس أو أيّ شيء أصطحبه معي في رحلتي الطويلة، وعندما وصلت صدمني الخبر المخيف.

بعد مرور ساعة من دخولي الغرفة، طرق أحد الخدم بابي ليخبرني أن تلغرافًا قد وصل توًّا باسمي. نزلت وتسلمته لم يكن معنونا باسم أحد، ما أثار دهشتي ودار بذهني سؤال: من هذا الذي عرف بوجودي هنا؟!

عدت إلى الغرفة وهناك أفضيت طرفه وفتحت الورقة المطبقة كانت مكتوبة بخط منمّق «في انتظار ما اتفقنا عليه». لففت الورقة وصنعتها كالكرة وألقيت بها في سلة المهملات محاولا ألّا أغضب، فقد أتيت هنا من أجل الهدوء والراحة.. ولكن من أين تأتي الراحة؟ فبدون أي مقدمات انقطعت الكهرباء وعمّ الظلام. قمت أبحث عن ملابسي التي خلعتها على أحد الكراسي واستخرجت منها ولاعتي المذهبة.. أشعلتها

ثمّ ارتديت ثيابي، واتجهت إلى الأسفل عند مكتب الاستقبال.

أكره دائما أن أكون وحيدا في الظّلام.. لست مصابا بفوبيا مثل ماري، ولكني فقط لا أستطيع تحمّل هواجسي عندما أصبح بمفردي في مكان معتم.

ـ متى سيعود التيار الكهربائي

ردّ علي الموظف بنبرة يكسوها الاعتذار:

ـ لا أعلم سيّدي، فالمشكلة تبدو كبيرة.

ـ كيف ذلك

ـ التيار مقطوع في مصر بأكملها.

ـ حقّا!

ـ لقد أخبرنا بذلك مسؤولون في شركة ليبون.

ـ ما هذا الحظ التعيس الذي يلاحقني؟ أريد النوم.

ـ سوف نشعل لسيادتك مصباحا في غرفتك حالا.

ـ لا داعي له سأبقى هنا إلى أن يعود.

ـ كما تريد

وتركته وجلست على البار.. طلبت كأس فودكا.. قدمها لي النّادل في الحال.. شربتها دفعة واحدة.

هبطت صورة ماري أمام عيني وشعرت بغصّة تنهك قلبي المفطور عليها، فهي الآن وحيدة وعندما تكون كذلك لا تجيد التصرف، ولا تعرف ما الذي يجب عليها فعله.

بعد قليل جاء أحد الخدم وقال لي:

ـ مستر إدوارد.. هناك مكالمة هاتفية من أجلك.

ولم يتيقن عقلي من المتصل إلّا عندما سمعت صوته يقول:

ـ في انتظار ما اتفقنا عليه مستر...

فقلت له مقاطعًا:

ـ رمزي.. سنتحدث في وقت لاحق.

وأغلقت الخط على الفور وعدت إلى مقعدي والغضب بدأ في الارتفاع.. قلت لنفسي:

ـ لم يكن يجب عليه أن يتحدث الآن.. هذا الغبي لا بدّ من تأديبه.

ماري

ما لم يذهب مع الرّيح

التّاسعة مساءً

باخرتي تبحر عبر البحر العريض نحو جذوري البعيدة، العديدة، تدفعها رياح السماء التي تنفذ من خلال الغيوم لتستقر على حافة شاطئ الأحزان، لأجد كوخي المتواضع، المكسو بذكريات الخوف الكثيفة... في هذه الكآبة المروعة تمضي حياتي بلا معنى.. أفكار حزينة، ورأسي منكس بالخيبة، وأكمامي مبلّلة بالدموع.

كان البرد يشتد على الشّاطئ الّذي بدا حزينا مثل كآبتي المظلمة، والطريق إلى البيت خال تماما كالمناطق المهجورة من قرون.

عدت إلى المنزل بعدما رفضوا بقائي بجواره.. تركته في نومته الهادئة على أمل أن يعود قريبا من غيبوبته التي سقط فيها دون أن يأخذني معه.

فتحت باب البيت.. داعبت مفاتيح الكهرباء.. لا استجابة، فقد انقطع التّيار. دلفت إلى الداخل بخطوات بطيئة، متحسّسة ويائسة.. أشعر أنّني أرتكب خطأ ما.. كلّ شيء أفعله أو أقوله خاطئ.. حياتي كلها بنيت على إثم جسيم من أمي، التي أتمنى من كل قلبي أن ينتقم منها الله ويعذبها في جحيمه بلا هوادة..

أدور في الظلام على أطراف قدمي بلا هدف، وبلا خوف على غير العادة.. تصطدم قدمي بركن الطاولة فأكتم الألم بين أسناني وأتابع طريقي.. تتحسّس يدي الشّمعة ثمّ تبحث عن علبة الثّقاب.. أجدها بجوارها مباشرة وأشعل الضّوء أخيرًا.. كان الجو هادئا وليس هناك أي شيء أفعله.. شعرت بالجوع.. أشعل عود ثقاب آخر بدلا من الّذي انتهى وأسير نحو المطبخ.. الطاولة مزدحمة بالصحون والأكواب والزّجاجات.. لسعت النار طرف إصبعي فرميت بعود الثقاب على الفور، ووضعت إصبعي في فمي ومصصته ليهدأ

الألم.. أشعل عودا آخر وقد صرفت نظرًا عن تناول الطّعام.. أترك المكان.

سرت بهدوء نحو قفص العصافير لأضع لها الحبوب.. رفعت يدي لأعلى لألقي نظرة عليها.

ـ لاااااااااا

صرخت في هلع وارتفع الأدرينالين في عروقي، عندما وجدت أفعى راقدة في قفص العصافير المعلّق بعدما التهمتها، فبقايا ريش الكناري واضحة على فمها. حاولت التّماسك والانسحاب بهدوء من المكان.. المنظر بشع ورهيب.. يا إلهي.. أخطو في عجالة فأسقط متعثرة في طرف السجادة، وفي أثناء ذلك بُركن عيني رأيت خيال أحدهم، وتوقف قلبي عن النبض في صدري ولم أجرؤ على التنفس.. قمت من سقوطي بصعوبة بعين زائغة تقطر خوفا وركزت أكثر، لم أجد شيئا.. يبدو أن الخوف دفعني للتخيل.. وتقلصت أمعائي وانقبضت معدتي.

في الخارج لا أعرف أين أذهب.

الظّلام حالك والبرد قارص.. لا أستطيع الدخول.. قلبي يرتجف، يكاد يتوقّف داخل صدري من شدّة الرعب الذي قذف به.

فكرت كثيرًا إلى أن قررت، فلم يكن أمامي سبيل آخر.

بيدي المرتعشة أدرت السيارة وانطلقت بحذر.. لا أعرف إلى أي مكان أذهب لكني تحركت وطافت بي الذكريات..

عندما كنت أجهز لحفل زفافي قابلت عرافة غجريّة قالت لي بنبرة يكسوها الحزن بأن جميع أطفالي سيموتون وقالت لي:

ـ في يدكِ اليمنى أرى سجنا، وفي يدكِ اليسرى أرى مصحّة عقليّة.

حكيت لديفيد عمّا قالته لي فقال:

ـ إنّها كاذبة.. إيّاكِ وتصديق العّرافات

لكنّي لم أصدقه وحاولت عدم الاهتمام بكلماتها التي علقت داخل عقلي الصغير، الذي يتذكرها دائما بسبب وبدون سبب.

في الكنيسة أقمنا حفل زفافنا.. عدد المدعوين كان قليلا للغاية، مجرد صديقين له وصديقة لي. تقدمت وأنا أشبك يدي في ذراعه.. لم أرتد فستان فرح، مجرد فستان سهرة طويل.. مشينا على مهل إلى داخل بيت الرّب، والأصدقاء يصفّقون حولنا ابتهاجا بهذا الحدث السّعيد..

وقفنا أمام المذبح المقدس. ابتسم القس لنا وتلا علينا قسم الزّواج، ثم أمسك ديفيد يدي وردد القسم بكل حبّ، ولمّا جاء دوري وقبل أن أتلفظ بحرف، دخلت أمي المكان بوجه جامد خال من المشاعر والأحاسيس، كأنّ الرّبّ صنعه لها من جذور الخشب.. في الوهلة الأولى ظننت أنّها أتت لتبارك زواجنا.. اقتربت مني..

رسمت ابتسامة لها وبدأت الفرحة تنبت في قلبي، رغم وجهها المتحجّر، ولكنها بددت كل شيء عندما قالت:

ـ أنا لا أبارك هذا الزّواج المدنّس.

هاجمها القس بغضب:

ـ لا يوجد أحد يوافق أو يرفض أيّ زواج سوى الرّب يسوع، فلتخرجي من هنا أيّتها السيدة ولتحترمي قدسية المكان.

وقالت في وجهي صارخة:

ـ ليكن زواجا ملعونا، يا بنت الخطيئة.

وقبل رحيلها دعت عليّ بموت أطفالي، وأن ينفطر قلبي عليهم طوال عمري.

يومها بكيت طوال اللّيل حتى كادت تبيضّ عيناي من الدّمع. لا أعرف حقّا ما الذي يدفعها لكرهي بهذا

الشكل.. حتى لو كنت أذكرها بذكرى سيئة فأنا لا ذنب لي وفي النهاية أنا ابنتها الكبرى.. أين معزّة البكري؟!

لم أسلم جسدي لديفيد لمدّة أسبوع. كان متفهما ما أنا به، وساندني حتى عبرت تلك الأزمة بسلام.

قضيت شهر العسل في مصر وتحديدًا في الإسكندرية.. كان ديفيد قد بنى بيتا رائعا يطلّ على الشّاطئ في منطقة منعزلة عن النّاس. أحببت تلك الفكرة ورحبت بها، فالبعد عن البشر راحة جميلة وخاصة مع طبيعتي أنا وديفيد، فكلانا لا يحبّ الصخب...

عقب مضي خمسة أشهر من زواجنا، أصبح مزاجي متقلبا بشكل سريع، وزاد التوتر والقلق وقلة الصبر وعدم الاتّزان.. أصابني الغثيان والقيء وغابت الدورة الشهرية وقال لي الطبيب:

ـ هنيئًا لكِ.. لا بد أنّكِ سعيدة جدّا بهذا الحدث.

نعم أنا بالفعل سعيدة لكن لست في منتهى السّعادة.

وبدأ بطني بالانتفاخ ٱلّذي كان يزيد يوما بعد الآخر.. في واقع الأمر كنت أشعر بأنّي حزينة، وما زاد الطين بّلة أنّني أشعر بالذنب لكوني حزينة.. ومع الوقت ومع كل ازدياد في بطني كان الاكتئاب يتناسب معه بشكل طرديّ.

خرج طفلي من أحشائي والشعور بالحزن والانزعاج والبكاء يزداد.. مشاعري غريبة.. أنا لا أشعر بالمشاعر التي يجب عليّ الشعور بها تجاه طفلي الّذي تركوه لي.. حينها كان ديفيد قد سافر إلى إنجلترا من أجل عمل مهم عقب ولادتي مباشرة. وأهملت طفلي.. لم أهتم بإرضاعه ولا تنظيفه.. صراخه يدفعني للجنون فكنت أهرب منه وأتركه بمفرده في غرفة لا أدخلها حتى أتأكد من أنّه قد صمت.. في يوم ما صمت بغير رجعة وانتهى كل شيء.. مات طفلي بسببي.. أنا أمّ قاتلة لا قيمة لها.. لعنة الله عليّ وعلى كل أفعالي التي لا أزال أدفع ثمنها.

أفقت من شرودي على شيء يعوق تقدم عجلات السيارة.. حاولت كثيرًا بالضّغط على دواسة البنزين

ولا فائدة.. انفصلت عن عجلة القيادة ونزلت أستكشف الأمر. وجدت أن الإطارات قد غرست في الطين وليس هناك أمل في خروجها.

لم أتحمل البقاء طويلا، أخذت القرار بترك السيارة كما هي واستكمال مشواري سيرا على القدمين.

الطّريق طويل لا يبدو أنّه سينتهي على الإطلاق.. قدمي تتحسّس خطواتها بهلع وخوف ولم أتنفس الصعداء إلّا عندما وجدت فانوس إنارة مشتعل، يدل على أنّني أصبحت داخل المدينة الساحلية، وأن الأمن والأمان أصبحا الآن في المتناول.

الشوارع خالية إلّا من أعمدة الإنارة.. بدأت أجتاز الطريق بخفة متسابق في مارثون سباق للعدو.. أعبر الشارع تلو الآخر ثم أعرج إلى الشارع الّذي يفضي إلى هدفي المنشود.

نقطة البوليس أمامها عسكري يجلس وهو يغط في نوم عميق، وصوت شخيره يصنع سيمفونية مزعجة..

تقدمت نحوه وأنا ألهث ولم أجد شيئا أفعله حيال ميتته الصغرى، غير أنّني جلست على مقربة منه..

بعد انتهاء أذان الفجر أحسست أخيرا بالخدر يجتاحني.. سلّمت نفسي له بلا أيّ مقاومة، وتدريجيًّا غفوت دون أن أشعر بنفسي وتماديت في النّوم.

فريد كمال

حتّى أكون أنا

الثّلاثاء.. السّادسة صباحًا

استغرق الطريق وقتا طويلا حتَّى وصلت إلى محطة مصر بمدينة القاهرة.. فقدت كلّ قدرتي على متابعةٰ السّير، أصابني التّعب والإرهاق ولكن كان علي مواصلة المشوار.

أضعت بعض الوقت في دفن أخي ومداواة وجعي عليه، تركت رجالي ينهون مراسم دفنه سرا، ثمّ اتجهت بمفردي نحو محطة قطار أسيوط الّتي لا يوجد سواها في البرّ كلّه ـ من أجل الانتقام لروحه الشاردة في السماء ـ على أن ألتقي بكل رجالي في الإسكندرية لننفذ خطة الانتقام.. تحدي الوقت هو كل ما كان يقلقني.. لا أريد أن أصل إليه بعدما يطير ويصبح العثور عليه ضربا من الخيال.. لن يفلت مني أبدا بفعلته هذه..

قطار الإسكندرية يتبقى على قدومه قرابة الساعتين.. جلست على أحد الدّكك الخشبيّة وغفوت قليلا.. سقطت في حلم مخيف.. رأيت صقر عملاق يحوم فوق رأسي وأفعى ضخمةٍ تسعى نحوي بشراسة لتأكلني، لكنّ صفّارة القطار المزعجة جذبتني من بين أسنانها.

استجمعت شتاتي وقمت أركب عربة القطار، ما لبث أن انطلق بهدوء حتّى اختفت المحطة تماما، ولم يبق إلا الفراغ والأشجار التي تظهر بين الحين والآخر...

ديفيد كاميرون منقب الآثار المسكين تعرفت عليه في أثناء رحلتي إلى لندن في العام 1910، كنت أتردّد على منتجع دكتور هيدسون إذ كنت أعاني من مرض الربو، واحتار الأطبّاء في علاجي إلى أن دلّني أحد الخوجات على الدّكتور هيدسون.. ذهبت إليه وقال لي بأنّني بحاجة إلى علاج طبيعيّ وبعض الوصفات العشبية، لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت.. سلمت نفسي له فلم يعد أمامي أيّ خيار آخر.. كان ديفيد أحد المرضى القدامى، بالصّدفة عرفت من أحد الممرضين

أنّه منقب آثار تعرض لحادث وسرق منه العديد من الخرائط والبرديات، وتمّ الاستغناء عنه بعدما فقد الذاكرة لفترة مؤقّتة. تحدّثت معه كثيرًا وبقيت فترات أطول في لندن من أجل أن أقدّم له صفقة العمر.

في يوم ما قلتُ له:

ـ أريد أن أتحدّث معك في أمر هام

قال باستغراب:

ـ ما هو

ـ سأزورك في منزلك اللّيلة.

رمقني بنظرة قلقة وشعرت بأنه توجس مني.. وفي المساء كنت أطرق بابه.. فتح لي دون ابتسامة أو كلمة فقلتُ:

ـ لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

تمتم:

ـ أتمنّى ذلك.

وأدخلني إلى غرفة مكتبة وقال لي:

ـ ماذا تودّ أن تشرب

ـ أيّ شيء.

ذهب وبعد لحظات عاد بكأسين من النّبيذ الأحمر، قدم واحدة لي وشرب هو بدوره الكأس الأخرى دفعة واحدة، ثمّ جلس خلف مكتبة والكأس الفارغة لا تزال في قبضته. كان يبدو عليه التوتر والانزعاج من وجودي.

ـ اجلس مستر فريد.

وضعت الكأس على سطح المكتب ثمّ نفذت أمره وقلت:

ـ أنا هنا من أجل أن أقدم لك يد المساعدة.

ابتسم ساخرًا وهو يقول:

ـ أيّ مساعدة تقصد

قلتُ بجدية:

ـ من أجل أن تعود ديفيد كاميرون منقب الآثار ذائع الصيت.

قال في أسى:

ـ لقد ذهب كل شيء إلى الجحيم.

ـ لا، لقد أتت لك الجنة التي لم تطرق بابها طوال حياتك.

ـ لا أفهم شيئا.. أوضح..

ـ أنا فريد كمال، رجل أعمال مصريّ، أمتلك المال وأنا بحاجه إلى مساعدتك.

ـ أنا!! أنا لا أملك أيّ شيء لأقدمه لك.

ـ كيف ذلك؟! أنت تملك كنوزا بين قبضة يدك.

نظر ديفيد إلى يديه باستغراب والكأس لا تزال عالقة في يمناه

- أين هذه الكنوز؟!

- ستقدمها لي وسيكون نصيبك منها الربع.

- أنا لا أفهم شيء.. معذرة.. فمنذ الحادث وأنا فهمي بطيء جدا.

- أنا أبحث عن كنوز أجدادي.

- من أيّ عائلة أنت

- الفراعنة.

- أوضح أكثر من فضلك.

- أريد مساعدتك في اكتشاف مقابر أجدادي الفراعنة.

سقط الحديث عليه كالصاعقة، وظل لفترة من الوقت يحدّق بي دون أن ينطق بشيء.

ـ ديفيد إنّها فرصتك لتعود إلى الحياة.

ـ لكن...

ـ ليس مطلوبا منك إلا أن تدلني على المكان، وأنا سأتولى فعل كل شيء بعد ذلك.

ـ الأمر ليس بسيطا ويحتاج إلى معدّات ورجال للحفر والتّنقيب..

ـ أنا جاهز لكل شيء.

ـ أريد أن أفكر أكثر.

ـ إنّها الجنّة أمامك والجحيم خلفك.. لا أعتقد أنّ هناك أحدا يمكن أن يأخذ وقتا ليفكّر هل يبقى في الجحيم أم يذهب إلى الجنّة.

وتركته ورحلت.. كان ديفيد بالنسبة لي هو الحل البديل والمثالي لتعويض رحيل صديقي عالم الآثار مايكل نورث، الذي رحل إثر حادث تصادم سيارته

بسيارة أخرى.. طوال حياتي أحب أن تدار أمور عملي بطريقة علمية حتى توفر علي الجهد والتعب، فبدون عالم آثار محترف من الممكن أن أظل أنتظر ضربة الحظ أن تأتي، ومن الوارد جدا ألا تأتي أبدا.. وفي الصباح جاءني اتصال منه يطلب فيه مقابلتي. كان قد استسلم لفكرة دخول الجنّة، وقد عزمت حقّا على أن يدخلها ويتمتع بكل خيراتها.

وبدأنا العمل.. ساعدني ديفيد على اكتشاف العديد من المقابر، وكانت له طريقة غريبة أو تميمة حظ كما كان يقول وهي النّرد.. لم يكن يفارق يده أبدا ولا يجعلنا نبدأ الحفر في أيّ مكان إلّا إذا سقط النرد على الرقمين 6 و1 حتّى لو كانت كل الخرائط والبرديات والأدلّة تقول إنّ هذا هو المكان. طريقة عجيبة لكنّها ملهمة وفعالة، وظللنا طوال خمس سنوات نعمل معا حتّى جاء لي في يوم ما وقال:

ـ لقد اكتفيت.

ـ لا أحد يكتفي من حور الجنّة أبدا.

ـ لقد رميت النّرد من يدي.

فتح يده الفارغة لي ثم تابع:

ـ أريد أن أكمل بقيّة حياتي في الاستمتاع بالجنّة.. لديّ الآن الكثير من المال وأريد أن أتمتع بكل ما كسبت.

ـ أنا ما زلت بحاجة إليك.

ـ أعرف ولذلك أتيت إليك حتّى أستأذنك في ترك العمل..

ـ ديفيد...

ـ مستر فريد أنا سأتزوج قريبا.

ـ حقّا!

ـ أريد أن أبدأ حياتي مرّة أخرى.. أريد استعادة الطمأنينة التي فقدتها في الماضي.

ـ هل أنت واثق من هذه الخطوة

هزّ رأسه ثمّ قال:

ـ يجب أن تحضر حفل زفافي.

قلتُ في استسلام:

ـ بكل تأكيد.

واحتضنته قائلا:

ـ مبارك يا صديقي.

ومن يومها لم نتقابل مرّة أخرى كما طلب منّي بعد ذلك. أراد أن يبعد عن كل من عرفهم في حياته ويبدأ من جديد بلا منغصات.. احترمت ذلك وعملت على أن أبتعد عنه.. لكن بحكم عملي عرفت أنّه كان يسعى لاكتشاف مدينة غارقة، توجّه إلى الإسكندريّة من أجلها وأقام هناك، لكن حساباته لم تكن دقيقة وفشل

في العثور على أيّ دليل، واكتفى وقتها بذلك وانعزل تماما عن الجميع.

ديفيد كاميرون.. يااااا... لم أتخيّل أنّنا سنلتقي مرّة أخرى بعد كل تلك السّنوات، ولكن لقاء لن يكون جيدا أبدا ولن تحبذه.. استعد أيّها الأحمق ستعرف ما جزاء من يتلاعب بفريد كمال، وأخيه أنور ملك الألاعيب والحيل.

المأمور

هل لديك وقت للجمال

السّابعة صباحًا

لعنة اللـه على الغفوة التي لا تكتمل.

لكزتني يد الشاويش سيد برفق، وهو ينادى بصوت خافت:

- حضرة المأمور... حضرة المأمور

فتحت عينيّ وأنا أتثاءب وقلتُ له:

- ماذا هناك يا بجم

ابتلع ريقه وقال بعدما رتّب الكلام في ذهنه:

- تعالى لترى.

وخرج منتظرا قدومي.

بعد لحظات كنت أقف أمامه بوجه ناعس، أشار لي بأن أتبعه نحو الخارج.. سرت خلفه في تثاقل، وعلى عتبة باب القسم أشار لي نحو اليمين قائلا:

ـ أتت عند الفجر، وبدون أن تتكلم سقطت في النوم مكانها، فخاف العسكريّ أن يوقظها.

اقتربت منها والدهشة تملأني.. هززتها برفق:

ـ مدام ماري...

لم تستجب فكررت فعلتي مرّة أخرى.. انتفضت مستيقظة كأنّي التقطتها من كابوس بشع.

ـ نهارك سعيد يا هانم.

لم ترد وأخذت في التّحديق بي في استغراب إلى أن قالت:

ـ من الّذي أتى بي إلى هنا

ـ أعتقد أنّني من يجب عليه أن يسأل هذا السؤال!

أغمضت عينيها لبرهة وتذكرت قائلة:

ـ كنت بحاجة إلى حمايتك البارحة.

سألت في قلق:

ـ ماذا حدث؟!

ـ هل يمكن أن نتحدّث في الداخل؟

ـ بالطبع سيدتي، معذرة لم أنتبه إلى ذلك.

ومددت يدي إليها لأساعدها في القيام، ثمّ أشرت لها بكل إشارات الترحيب وهي تتخطى باب القسم وتتجه نحو مكتبي، جلست على أحد المقاعد المنتصبة أمامه، وبدوري جلست خلفه، وناديت على العسكريّ الّذي أتى أمامي يلقى التّحية العسكرية وهو يدبّ بقدمه على الأرض ويقف كالألف:

ـ تحت أمرك يا فندم.

ـ حضر فطار لمدام ماري.

وسألتها:

ـ هل هناك شيء معيّن تريدينه على الإفطار؟

أجابت بخجل:

ـ لا لا... لا أريد أيّ شيء.

ـ غير ممكن.. لقد صدرت الأوامر.

وأشرت للعسكريّ بأن يذهب لينفذ ما أمر به.

ـ ممنونة لك.

ـ هل أنتِ بخير

زفرت بتنهيدة فاترة وأجابت:

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ ماذا بكِ

ـ عندما عدتُ البارحة إلى البيت كانت الكهرباء لا تعمل.

أوضحت:

ـ كانت مشكلة عامّة في مصر كلّها.

هزّت رأسها بالإيجاب وتابعت:

ـ أشعلت شمعة صغيرة حتّى أستطيع السّير في المنزل، وبدون مقدّمات وجدت قفص العصافير بداخله أفعى كبيرة وقد التهمت العصفورتين.. لم أستطع تحمل المشهد فخرجت مهرولة بالسيارة التي غرست إطاراتها في الوحل، فتركتها وتابعت مشواري سيرًا على قدميّ، إلى أن وصلت هنا قبل الفجر.. كان العسكري نائما فخشيت إيقاظه.. جلست لأرتاح فخلدت في نوم عميق.

ـ لا داعي للقلق.. وسأعاقب هذا العسكريّ النائم.

- لا.. أرجوك سامحه هذه المرة، كان يبدو عليه الإرهاق الشديد.

- كما تأمرين.

- المهمّ الآن التخلص من الأفعى.

- الأمر بسيط.

حدقت بي بعين تملأها الدهشة فأوضحت:

- لقد شيدتم منزلا في أطراف المدينة ولا يوجد بمحيطكم غير الصّحراء، فمن الطبيعي وجود مثل تلك الكائنات.

أومأت برأسها قائلة:

- معك حق.

- سأرسل معك أحد العساكر ليخرج الأتوموبيل من الطّين، ثمّ يقوم بتفتيش المنزل بالكامل، وسيضع

عشبة الشّيح والثّوم في كل أرجاء البيت، حتّى لا تأتي العقارب والثعابين مرة أخرى.

- ممنونة لك.

- على الرحب والسعة.

أتى العسكري بالفطور ووضعه أمامها.. تركتها بمفردها حتّى تكون على راحتها.. أتلصّص عليها من بعيد.. أتأمّل حركة يدها، وفكّها الصغيرة.. أتأمل وجهها الشاحب وأتساءل:

- ما الّذي تخفينه خلف هذا القناع؟! ما أسرارك أيّتها المرأة الجذابة ذات العينين العسليتين؟ ما الّذي حدث لك جعلك بهذا الهلع وبدّد قوامك المثير... آه لو أجد واحدة في جمالك، لن أشبع منها أبدا، سأحبها حبّا جمّا وأضاجعها كل يوم... آه ثم آه.. من مثلك ستنهي ندبة قلبي المؤلمة وستهون عليّ حياتي العسكريّة المملة... أعتقد ليس هناك أجمل من أن يعود الرّجل إلى بيته فيجد قمرًا في انتظاره.. يبتسم له ويربت على كتفه

عندما تركبه الهموم.. تحتضنه عندما يشعر بالبكاء ثمّ يضاجعها حتّى يشعر بالانتشاء...

فريد كمال

خيبة الأمل

العاشرة صباحًا

أخيرًا وصلت...

شعرت براحة كبيرة لأنّ رحلتي قد انتهت ولم يعد أمامي إلا خطوة واحدة وأعرف كل شيء.. لكن الإرهاق ينخر في كل أجزاء جسدي بلا رحمة.

ذهبت إلى فندق سان ستيفانو الرمل.. حجزت غرفة وضعت بها حقيبة سفري وجلست أبحث عن الرّاحة.. قال لي أبي إنّ الراحة في البعد عن النساء.. لا تربط مصيرك بأيّ امرأة.. لم أتزوج.. وقال لي أبي أيضا إنّ المرأة هي خطأ الطبيعة، تولد من حيوان منويّ في حالة سيّئة، لذلك خلق الله للنساء كتفين ضيقتين ووركين عريضين كي ينجبن أبناء ويقعدن في البيت، فالمرأة حمارة عنيدة طويلة الشعر وقصيرة الفكر..

ومع تجربة حبّي الأول أيقنت صدق كلّ كلمة قالها أبي.. كانت فتاة جميلة ابنة لأحد جزّاري الحيّ الّذي كنت أسكن به.. تلاعبت بمشاعري فتحت لي الباب نحو عشقها، وحين طلبت الزواج بها، سخرت منّي ومن وظيفتي الصغيرة ومعيشتي الفقيرة...

أخذت حماما باردا لأعيد النشاط إلى جسدي، وغيرت ملابسي وانطلقت نحو فيلا ديفيد.

حين وصلت ظللت فترة كبيرة أطرق الباب بقوّة، أزيدها في كلّ مرّة.. لا يأتي لي صوت أحد من الدّاخل.. بدأت في النّداء بصوت عال باسمه ولا مجيب، وساورني شكّ كبير بأنّه بمجرّد قتل أخي وسرقة مقبرتي هرب إلى خارج البلاد. لم أعرف ما الذي يجب عليّ فعله إلا العودة مرة أخرى إلى الفندق. وهناك تناولت الغداء فقد كانت معدتي خاوية ومرهقا.. صعدت إلى غرفتي واستلقيت على سريري ولم يأت النّوم. فكّرت في فعل شيء ما حتى يأتي النّعاس. قمت ودرت في الغرفة فلم أجد إلا جريدة «المصريّ» فتناولتها ورحت أتصفّح أخبارها، وتجمّد

نظري عند خبر كتب بالبنط الصّغير في مساحة ضيقة بعنوان «عالم الآثار ديفيد كاميرون في غيبوبة» وتقول تفاصيل الخبر إنّه تعرّض لحادث في أثناء صيده، ودخل في غيبوبة لا رجعة منها.

ارتديت ملابسي على عجل. ذهبت إلى المستشفى الذي يرقد به.. قبل أن أدخل وجدت هناك شخصا أصلع في نفس عمر ديفيد تقريبا، يقف مع ماري زوجة ديفيد، فآثرت عدم الدّخول وتراجعت قليلا.. اتجهت نحو الممرضة أسألها عن حاله فقالت لي:

ـ ربنا كبير.

وتحرّيت كثيرًا عما حدث معه، وتأكدت أنه لا دخل له بأيّ شيء، وأنّ هناك خدعة رسمت لي وأنا صدقتها.

إدوارد

تقوب يجب إغلاقها

الحادية عشرة صباحا

ماذا أفعل في هذا الغبي؟

عندما لا تغلق ثقوب الماضي جيدًا، ستظل تطاردك كالكوابيس المزعجة إلى أن تقضي عليك.. وأنا لن أنهي حياتي على يد هذا الحقير.

لم تعرف عيناي النوم منذ اتصال رمزي.. عاود الاتصال بعدها بساعة ولكنّي أغلقت الخط سريعا بمجرّد معرفتي بأنّه المتّصل. هذا الأحمق لا يريد أن يفهم خطورة الوضع ولا يستوعب أيّ شيء، فبتصرفاته الطائشة سيهدم كل ما أسّست له، ولكنّي لن أسمح له بفعل ذلك أبدا.

وقعت الكأس من يدي الغاضبة على الأرض، فأثارت انتباه كلّ الحاضرين، وأسرع النّادل لينظف المكان

ويلملم قطع الزّجاج.

طلبت منهم أن يشعلوا مصباحا في غرفتي، ثمّ تركت المكان وصعدت. الكهرباء لا تزال منقطعة ولا أمل في عودتها اليوم على ما يبدو.

على أضواء المصباح الخافتة صببت كأسا جديدة، وجلست على المقعد أفكر في ما يجب عليّ فعله مع رمزي الذي لن يكف عن مطاردتي حتّى يحصل على مبتغاه.. من تربّى على استغلال الظروف لن يكون سهلا التخلص منه، ولكنّ سوء حظه أنه في قبضتي ومهما حاول لن يستطيع فعل شيء.. كل ما يملكه هو الشّوشرة، وهو يدرك أن سمعتي لا يجب أن تمس في الوقت الراهن، وهذا ما يلعب عليه. تجرعت آخر كأس في الزجاجة، وفكرت في طلب أخرى ولكن تراجعت عن ذلك، فمعدتي ممتلئة بالشّراب، وأكثر من ذلك سيسبّب لي مشكلات أنا في غنى عنها.

استلقيت فوق السرير.. أحدق في سقف الغرفة.. أتذكر فيكتوريا زوجتي الأولى.. ماتت سريعا بعد أقل من

سنة من زواجنا، كانت مريضة بالقلب، عانت كثيرًا إلى أن أراحها الرّبّ.. قبل موتها قالت لي:

ـ لا تدع حياتك تمرّ هكذا.. كن عظيما من أجلي.

انهمكت في العمل لسنوات وسنوات، بحثًا عن أيّ مجد ولم أجد، لكن هناك فرصة قد حان وقتها الآن وسأحقّق أمنيتك يا عزيزتي.. صحيح أنّني بعدك أحببت ماري بجنون ولكن القلب يستطيع أن يحبّ أكثر من مرّة بنفس اللهفة والولع، هكذا خلقه الله، وفي الوقت نفسه جعله لا ينسى من سكن به وأشعره بالبهجة.. جعل ذكراه في مكان متوارٍ من الذاكرة، لذا ليس هناك تعارض بين أن تفي بوعدك لشخص ميت وأن تحبّ مرة ثانية، ولا أنكر، فقد حرّرتني زوجتي من هذه الورطة بموتها.. عندما يموت الحبيب الذي في يدينا نحزن على فراقه بعض الوقت، إلى أنّ تلهينا الدنيا عنه بحب جديد.. وعندما يموت الحبيب الذي لا نستطيع تملكه، نفرح لأنّه لن يكون لغيرنا.

غفوت قليلا وهاجمني حلم مرير.. كنت أغرق.. رأسي بالكاد يطفو.. أحاول السّباحة لكن هناك خدرا يسري في جسدي فيمنعني من الحركة.. يدفع جسدي للأسفل ولا يبقى على سطح المياه إلا الفقاعات الخارجة من فمي.. وتدريجيّا أهبط ثمّ أهبط وقبل أن أستقر في الأسفل تلتهمني سمكة عملاقة.

انتفضت مستيقظا من هذا الحلم المرعب.. جسدي بأكمله مرهق كأنّي كنت في معركة حقيقيّة. عادت الكهرباء أخيرا.. قمت متجها نحو الحمّام.. أغلقت الباب ونزعت ملابسي.. تمدّدت في حوض الاستحمام.. المياه دافئة تدفع جسدي للاسترخاء، والتخلص من بقايا الحلم المزعج الذي يتكرّر معي باستمرار منذ أن كنت طفلا.

لا أجيد السباحة وأخاف بشدة من البحر.. تعرضت للغرق في طفولتي في حادث مات فيه أبي وأمي.. كنا نتنزه بقارب صغير في موسم الربيع.. في لحظة غضب أخذهما مني الرب وتركني وحيدًا.

طرق الباب فانتصبت عاريا ألتقط البُرنس، أرتديه وأنا متجه نحو الباب الذي كان يخبّئ خلفه ما كنت أهرب منه.

- رمزي!

ماري

من النّار إلى النّار

الحادية عشرة والنّصف صباحًا

الألم شعور مزعج، لكنّه على كل حال ليس سيّئًا، فهو يحمينا من تفاقم أيّ مشكلة.. فحتى لو لم يكن بمقدورنا معالجة الإصابة، فإن هذا الألم يذكرنا بأهمية فعل شيء لمعالجة الأمر. أحيانا يصبح الألم مصدر إزعاج حقيقيّا كجرس الإنذار الذي يرنّ طويلا حتى بعد إطفاء الحريق، فتلك اللحظة يصبح الألم جحيما لا مفر منها. هكذا كان يقول لي طبيبي هيدسون، محاولا فتح آفاق أخرى أمامي لكن بلا عائد. مشكلتي أنّني متوقفة عند نقطة واحدة في حياتي، ورافضة تماما فكرة تركها.. إنّني تعلمت من مسلسل الخسارات أنّه لا شيء جيدا سيحدث لي.

قام العسكري بفعل ما أمره به مأمور القسم.. استعان بعربة لوري لإخراج سيارتي من الطين الذي غرست به،

ثمّ أتى بميكانيكي وأصلح السيارة، وبعدها ذهب برفقتي إلى المنزل وجال في كل أرجائه وهو يضع الشيّح والثّوم، وعندما انتهى طلبت منه أن يوصلني إلى المشفى حتى أرى زوجي.. وقتها حينما شرعت في الرحيل، رنّ هاتف المنزل.. كان الطبيب هيدسون قد أتى إلى الإسكندرية في زيارته السنوية إلى مصر، وطلب مقابلتي في الخامسة من مساء اليوم.

كان عليّ الذهاب أولا بصحبه العسكري إلى المستشفى حيث يرقد حبيب عمري، وبعدها أذهب لمقابلة الطبيب.. هكذا قلت لنفسي.. ورأيت أن من اللطف أن أعطي للعسكري قطعة من النقود كنوع من الشكر، لكنّه احمر خجلا رافضا ذلك، واستأذن لنرحل دون أن يأخذ شيئا.. ترك هذا الفعل أثرا جيدًا في نفسي، تلاشى عندما دخلت على زوجي وتذكرت الحقيقة التي تناسيتها، أنّني وحيده، ولن أستطيع مواجهة هذا العالم وهو راقد هكذا.

أجلس بجواره وأمسك يده الباردة.. أحاول أن أبعث فيها الدفء وأتشبّث بها من أجل أن يظل معي.

لم أعرف في حياتي مثل هذا الوجع الذي هبط على قلبي بغيابك، فعصره مثل برتقالة يانعة وجعله يرتجف بردا وحزنا، شدّ أعصابي وأثقلني بالتوتر طوال الوقت.

أتى الطبيب وفحصه بسماعته وجس نبضه، ثمّ طلب من الممرضة أن تحقنه بالحقنة اليوميّة، وقبل أن يرحل قال لي:

ـ الأمور تسير على ما يرام، لا داعي للقلق.

ـ أتمنّى ذلك.

في عصر هذا اليوم كنت وحيدة جدا.. تركت ديفيد ورحت أتمشّى قليلا لأفكر، فأنا من فئة الذين لا يستطيعون التفكير إلّا وهم يسيرون بخطوات سريعة.. أمنح عقلي الفرصة لاستعراض أفكاره، لكن الحزن لا يترك لي فرصة وينخر في عظامي بلا هوادة.. تمنّيت لو أنّ بإمكاني خلع قلبي من صدري وإلقاءه في القمامة.. تمنّيت لو توقف عقلي قليلا عن التفكير حتّى أشعر بالراحة.. وظللت على هذه الحالة

حتى قرع جرس الكنيسة، حينما اقتربت منها.. شاهدة الحمامات وهي تطير حيث كانت جاثمة على برج الكنيسة العالي، وصارت تحوم في الهواء.. تقدمت إلى الداخل.. القاعة خالية وطلاؤها الحديث يصدر رائحة نفاذة أشعرتني بالاختناق.. وقفت أمام تمثال المسيح بعين منكسرة لا تستطيع النظر إليه.

أيّها المسيح فلتساعدني، أنا لست مثلك أستطيع تحمّل الآلام.. ليست لي رسالة في هذا العالم حتّى أصلب من أجلها.. أنا كائن ضعيف يريد الراحة ولا أطمع في الجنة.. أرغب في الحياة وفي سعادتها فلتأخذ الألم وتلقي به لمحبّي جنتك.. لا تدخلني في التّجربة.. لا تدخلني في التجربة.. أعد لي زوجي وإيّاك أن تتركني وحيدة.. أنت تعرف أنّني أخشى الوحدة وأحبّ ديفيد.. لا تفرقنا أرجوك.. ساعده في الاستيقاظ من غفوته.. ساعده على الشّفاء.. ارحمه وارحمني من أقدارك السّيئة.. لم يعد لدينا أيّ طاقة لاحتمال عبثك معنا.. معذرة أنا لا أقصد التّطاول في الحديث معك،

أنا فقط أقول ما في داخلي ويجب أن تصغي إلي أرجوك... أرجوك.

رسمت إشارة الصّليب بيد مرتجفة في الهواء باتجاه جسدي الهزيل، ثمّ غادرت المكان بخطوات مسرعة كأنّني أخجل ممّا فعلت.

رمزي

لم يؤن الأوان

الثّانية عشرة ظهرًا

يهرب من اتصالاتي المتتالية.. لا يريد سماع صوتي، فقرّرت أن أريه وجهي وآتي إليه مباشرة، وضعي المالي لم يعد يحتمل، وعليه الوفاء بالتزاماته تجاهي.. فأنا لم أفعل كل ذلك حتى يتهرب من مقابلتي.

ذهبت إلى إدوارد في الفندق الذي يقيم فيه حتّى أضع حدّا لتلك المهزلة. أخبرني موظف الاستقبال بأنّه في غرفته فطلبت منه عدم إخباره بوجودي حتّى تكون مفاجأة له. طرقت الباب وحينما فتح ووجدني تغيرت ملاحمه للغضب، وما لبث أن رسم ابتسامة زائفة على وجهه وقال لي بدهشة مصطنعة:

ـ رمزي!

ـ رمزي الذي تهرب منه.

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

ـ كنت فقط أريد رؤيتك.

ودخلت وأغلقت الباب.. تجاوزته وجلست على كرسيّ الطاولة.. تتبّعني بعين غاضبة.

ـ ألم أقل لك يجب ألّا نتقابل في الوقت الحاليّ؟!

ـ نعم قلت.. لكن أنا بحاجه إلى المال الذي وعدتني به، وقبل المال يجب إعطائي كل الكمبيالات التي كتبتها على نفسي.

ـ ليس الآن.. عندما أحصل على خرائط المدينة الغارقة سوف تحصل على ما تريد.

ـ ليس شأني.. لقد كلفتني بمهمتين ونفذتهما على أكمل وجه.

ـ ليس معي المال الذي وعدتك به، ولن يكون معي قبل أن أحصل على الخرائط والبرديات.

ـ والكمبيالات، أين هي

ـ ليست معي هنا.

ـ كيف ذلك؟! أين خبأتها؟

ـ عند المحامي الخاصّ بي.

ـ اللّعنة.

شعرت بخيبة كبيرة وأنا أحدق فيه.. قدّم لي كأس ويسكي وجلس في المقابل لي وقال:

ـ القمار لم يعلمك أيّ شيء.. لم تعرف طوال حياتك كيف تختار رهانك المضمون.

ـ ماذا تقصد

ـ لا شيء.

ـ هل تريد أن تقول لي إنّني راهنت على الحصان الخطأ؟!

ـ ليس هذا ما اقصده.. أنا لا أخلف وعدي أبدا مع أحد.. فسمعتي أغلى من كل كنوز الأرض.

قلتُ بتوسل:

ـ أنا بحاجه شديدة إلى المال.. الديون تخنقني.

ـ الصبر.. سوف تحصل على كل ما تريد وأكثر.

ـ سأرحل الآن إلى القاهرة.

ـ جميل.. اختيار موفق.

ـ ستجدني إذا احتجت لي في فندق الخواجة ماركو.. إنّني مقيم بشكل دائم في كازينو القمار هناك.

ردّ ضاحكا:

ـ إيّاك أن تكتب على نفسك كمبيالات مرة أخرى.

ـ لا تخف.. لقد تعلمت الدرس ولن يتكرّر ثانية.

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وأنت علمتني الدرس الأهمّ في حياتي يا مستر إدوارد.

إدوارد

مقابلة مع نفسي

الثّالثة عصرًا

هي مذهلة.. جميلة بشكل مبالغ فيه.. تمتلك روحًا استثنائيّة.. جذّابة بشكل لا معقول.. هي مزيج من الشّيطنة والملائكية والاتزان والتوهج، وكلما أراها أشعر بالذّهول.

أصبحت بحاجه إلى رؤيتها بعدما عكر هذا الوغد رمزي مزاجي، فذهبت إليها في المستشفى. كان الطّريق طويلا ومملا ولا يوجد به أيّ شيء يبعث على التّفاؤل، ولكنّي تناسيت كلّ همومي بمجرّد أن فتحت باب الغرفة ودخلت. كانت جالسه ترنو إلى النافذة، ولم تنتبه إليّ إلّا عقب إحداثي صوتا لتسليك حنجرتي المتحشرجة.

ـ مرحبا

حدقت بي قليلا كأنّها تحاول تجاوز دخولي المفاجئ، ثمّ قالت:

ـ مرحبا مستر إدوارد.. كيف حالك

هززت رأسي في أسى:

ـ لست جيّدًا

ـ لماذا؟!

ـ قطعت الكهرباء البارحة ولم أنم طوال اللّيل.

قالت ببساطة:

ـ كان باستطاعتك النّوم بالنهار.

ـ لا أحبّ نوم النهار، يسبّب لي الصّداع.. الحفاظ على السّاعة البيولوجية مهمّ جدّا بالنّسبة لي.

ـ لديك حق.. أنا أكثر شيء يعذبني هو عدم الالتزام بمواعيد النوم

ـ الأمر فقط يحتاج إلى التعود.

ـ والقدرة على فعل ذلك.

صمت قليلا قبل أن أجلس على الكرسيّ الّذي بجوارها، ثمّ قلت بنبرة حزينة:

ـ كيف حال ديفيد اليوم؟

ـ لا جديد، كما هو.. يتناول طعامه وشرابه عبر الخراطيم، وأنا أجلس بجواره في انتظار أن يستيقظ.

ـ سيكون بخير.. لقد طمأنني الطبيب قبل أن أدخل عليكِ.

ـ أتمنّى ذلك.

ـ ما هي خطّتك اليوم

ـ لمَ

ـ كنت أريد صحبتك على الغداء.

- للأسف عندي موعد في الخامسة مع دكتور هيدسون.

- هل عاد هذا العجوز من لندن

- نعم.. اتّصل بي صباح اليوم وأخبرني بأنّه في انتظاري.

- هل تريدين أن أرافقك عند الذّهاب إليه

- شكرًا لك.. هو دائما يريدني أن أذهب إليه بمفردي.

قلت متنهّدًا:

- عظيم.

وصمت قليلا قبل أن أسألها في خبث:

- هل تقيمين معه هنا أم تعودين إلى المنزل.

- لم يسمحوا لي بالبقاء معه.. في اللّيل أضطر إلى العودة للبيت.

ـ إذا كانت هناك أيّة مشكلة يمكنك الإقامة معي في الفندق.

ـ لا داعي.. لا أريد أن أترك بيت ديفيد لأنّه سيعود إليه قريبا.. لا أريد أن أشعر بغيابه.

وهزت رأسها وقد خطف الشرود عقلها.

دكتور أليكس هيدسون

ميؤوس منها

الخامسة مساءً

فجأة تغضب وفجأة تبكي دون سبب أو مبرّر.. مزاج متقلب كالبحر الهائج.. هبطت الثقة بنفسها وفقدت معها الشعور بالدفء والمحبة والفرح، فالذكريات القديمة لم ترحمها وأثقلتها بالتّشاؤم والخوف من المجهول، كلّ ذلك أدّى إلى انعزالها عن الجميع.. كانت ماري مصابة بالاكتئاب وتغيرات في الوجدانية بسبب نشأتها في عائلة سيئة، وخاصة معاملة أمها لها، وتفاقمت حالتها وازدادت لتصل إلى التطور الأسوأ وتصاب بحالة بسيخوزا التي يحدث فيها ـ بجانب التفكير السلبي ـ حالة من الذّهان والهواجس والتهيؤات والأفكار التي تأتيها من الخيال وتندمج بواقعها، فلا تتحكم بالأمور بشكل سويّ وبعقلانية، لكنها تحسنت بعض الشيء حينما قابلت ديفيد وتزوّجته.. عندما بشّرت بالحمل عاودها المرض مرة

أخرى، وازداد عندما وضعت طفلها، إذ أصابتها شكوك زوريّة وبدأ يخيّل لها أن هذا الرضيع الذي بين يديها ليس رضيعها وأنّه استبدل في المستشفى بآخر، وتقول لنفسها باستمرار «هو غريب عنّي، ليس لي ويجب عليّ حرمانه من الأكل والشرب».. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تبدأ في التفكير في التخلص منه.. في هذه المرحلة الخطيرة من المرض بدأت ماري في سماع صوت يقول لها «الطفل ليس لكِ، عليكِ التخلص منه... اقتليه»، وبما أنّها لا تميز بين الواقع والخيال، فقد قتلت طفلها بخنقه حتّى فارقت روحه الحياة، ثمّ أقدمت على الانتحار أكثر من مرة، لكنّها كانت تفشل ويتم إنقاذها، لذلك كنت أوصي بعدم تركها وحدها أبدا، حتى لا تؤذي نفسها مرة أخرى.

مرّ على ذلك قرابة العشر سنوات، وفي تلك الفترة كنت أتابع حالتها باستمرار عندما آتي إلى مصر في زيارتي السنوية.. مع الوقت تحسنت حالتها قليلا ثمّ توقف التحسن، كأنّها علقت في فوهة زجاجة المرض

فلم تستطع الهروب منه.. لقد تمسك بها جيّدًا وهي بدورها سلمت له نفسها.

طُرق الباب ودخلت مساعدتي، أخبرتني بأنّ ماري منتظره في الخارج فطلبت منها أن تحضرها على الفور.. لحظات وظهرت ماري أمامي شاحبة الوجه، لكنّه ليس بالجديد.. بادرتها بقولي:

ـ كيف حالك سيدة ماري

قالت بابتسامة تبعث على الامتنان:

ـ بخير يا طبيبي العزيز.

وطلبت منها الجلوس ثمّ قلتُ:

ـ أين وصلنا الآن

ـ لا جديد، غير أن ديفيد تعرض لحادث أليم.

قلت فزعا:

- ماذا؟!

- كان في رحلة صيد وكان المناخ سيئا.

- وكيف حاله الآن

- في غيبوبة تامّة.. لا أحد يعرف متى سيخرج منها.

- يا إلهي.. سأذهب غدا لزيارته.

وقلت محاولا بعث نوع من الطّمأنينة داخلها:

- سيكون بخير لا تقلقِي.. ولو تطلب الأمر سفره إلى لندن سأفعل ذلك بلا تردّد.

نظرت نحوي وهي تهزّ رأسها كأنّها فاقدة لإيمانها تماما، وسكت قليلا وقلت:

- وأنتِ كيف تقضين يومك؟!

- طوال اليوم أكون معه وباللّيل أكون وحدي.

- وكيف تسير الأمور وأنتِ بمفردك

ـ كالعادة الخوف رفيقي.

ـ والكوابيس...

ـ لا تتركني أبدا.

ـ لكنّي أشعر أن التحسن طرأ عليكِ..

ـ أين هذا!!

ـ يكفي أنّك تمكثين بمفردك ولا يحدث لك شيء

ـ عندما أكون بمفردي تهاجمني الهواجس في يقظتي، والكوابيس المفزعة في أحلامي... أنا ما زلت أعاني من اضطرابات نفسيّة داخليّة، وتنتابني موجات متتالية من الغضب والتّرفزة، لكن لم أعد أرى أشياء لا علاقة لها بالواقع.

ـ يجب أن تخبري نفسك دائما بأنّكِ بخير.. يجب أن تنتصري على كل مخاوفك. وتذكري أن لا شيء سوف يحدث لك أسوأ ممّا حدث.

ماري

المكسور المحشو قشا

السّابعة مساءً

أعود للبيت متناسية كل شيء.. أو هكذا أوهم نفسي طوال طريق العودة.. أردّد على مسامعي أن كل شيء تمام وأنّني بخير.. بخير.. قال لي الطبيب أليكس إذا فعلت ذلك طوال الوقت سأكون بخير.. لكنّني أشعر أنّني لست بخير.. أنا لست بخير. أنا وحيدة ومنكسرة وخائفة.. وعيي مشوش يغمره الضباب الذي لا ينقشع عن ذاكرتي المشتعلة طوال الوقت بالأفكار غير السوية.

متى تعود حياتي؟ متى سأرتاح؟

هناك شعور سيئ لا يمكن تفسيره يكبر داخلي كل لحظة.. يخبرني أنّ هذا العالم لم يعد كما كنت أعرفه وأنا طفلة.. لقد ماتت الدّهشة يوم أن اصطدمنا

بالحقيقة، وعرفنا أنّ كل شيء خلق ليعذبنا، وأنّ السعادة هي وهم الأغبياء الساذجين في هذه الحياة.. لم أعد أنتظر شيئا من الخالق، فقد انتظرت كثيرًا حتّى ضجرت من نفسي ومن حياتي. أيّها الرّب هل ستمد لي يد العون؟ إن كان جوابك بالإيجاب قل لي من فضلك متى سيكون ذلك؟ وإيّاك أن تقول لي سيكون قريبا.. أنا حقّا أكره أن أظل هكذا... رجاء لا تتركني أنتظر أكثر من ذلك.. قلبي أصبح على وشك أن يفقد النّبض.

رمقت المسيح المعلق على الصليب بنظرة استعطاف علّه يشعر بي، ثمّ دلفت إلى السرير. أصرّ ديفيد أن نملك نسخة من تمثال يسوع في كل مكان في البيت.. كان يقول «سيكون هو حارسنا المخلص في هذا العالم الغادر».

أحاول أن أغرق في النوم فتهاجمني الكوابيس القاتمة التي لا أتذكر محتواها.. أشعر بالخوف وتسري رعشة باردة في قلبي. تناولت الدواء وعند الفجر أحسست أخيرا بالخدر يجتاحني وسلمت نفسي له.

استيقظت بلا مقدمات على أشعة الشمس التي تتسرب من النافذة.. صداع بشع يضرب أركان رأسي.. قمت بلا ملابس نحو غرفة المكتب.. أتحرك بحذر بين الفوضى المنتشرة في أركان المكان.. أطالع الصور المعلقة فوق الحائط والكتب المترامية في كل ركن.. أتسمّر في مكاني كالعادة أمام تمثال المسيح المعلق على الجدار وهو معذب بإفراط.. إنّني على وشك البكاء والشكوى له، ولكنّي تمالكت نفسي وجلست خلف مكتبي.. مكثت بلا حركة أحاول طرد تلك الهواجس التي تطوف حولي في انتظام.. مددت يدي وأخرجت مجموعة من الكشاكيل من أحد الأدراج.. اخترت الكشكول الأول وتناولت القلم ورحت أكتب:

«الكلمات معلّقة أمامي ولا أستطيع الوصول إليها.. لا أعرف من أنا ولا أعرف ماذا سأفقد غدا.. لكن سيأتي وقت وأعرف لماذا؟ ولأيّ هدف هذه المعاناة وسأذهب لوحدي بلا رفيق ولا حبيب...».

ديفيد

العودة

الثّامنة مساءً

عيناي أجد صعوبة في فتحهما.. جسدي لا أشعر به لكن قلبي ينبض ورأسي مثقل... أحسست كأنهم علقوا بي كتلة حجرية ضخمة وبغبائي بقيت مستسلما لها.

ألتقط الصور الأولى.. أجد غرفة بيضاء وسريرا حديديا يحملني، وليس هناك أحد معي. هل عدت بمفردي مرة أخرى؟! إنّه شعور ثقيل بالكآبة.

أشيح بوجهي نحو النافذة.. هناك في الخارج أشجار خضراء وسحب مثقلة بالسواد، تذكرني بالخيبة والضعف.. أحاول تذكر ما حدث لي.. تمرّ على ذاكرتي مشاهد غضب البحر ودوّاماته المغلفة بالعواصف، وشيء ثقيل يرتطم برأسي بكل قوة.. اللّعنة على الصّداع والألم الذي يمنع جسدي من الحركة.

في لحظة ما من حياتي تعرضت لسوء حظ غريب وقدر شيطانيّ ملعون، إذ تخلى عني الله عقب توقف إدوارد صديقي الحميم عن الحديث معي، بسبب شجار حدث بيننا على آليّة العمل.. تعرضّت لحادث فقدت على إثره ذاكرتي.. فصلت من العمل.. انتحرت أختي.. وماتت زوجتي بجرعة مخدّر زائدة.. واستمرّت قائمة سوء الحظّ معي إلى أن مات الأمل داخلي واستسلمت للسوء.

دخلت في حالة صراع مع جسدي من أجل أن ينتفض من هذه الرّقدة المميتة.. أتخبّط في حركاتي وخطواتي كالمخمور، ثمّ أتوقّف لبرهة لألتقط أنفاسي المتدافعة منّي بشكل هستيري.. فتح باب الغرفة وظهرت فتاة بملابس بيضاء، وتعلو رأسها قبعة صغيرة من نفس اللّون.. بادرتني بقولها وهي تبتسم:

ـ الحمد لله على سلامتك.

حركت شفتي بصعوبة كبيرة مستعينا بكل عضلات وجهي، كأنّني أتعلم النطق للتّو ثمّ قلت متلعثمًا:

ـ أـــيـــن أـــنـــا

ـ ماذا بك

وارتبكت قدمي فكدت أسقط، لكنّها لحقت بي وأمسكت بيدي التي لفتها على كتفها، لتدفعني في طريقها لإعادتي للسرير مرّة أخرى.

ـ استرح ولا تحاول إجهاد نفسك كثيرًا.. أنت هنا في المستشفى.

هززت رأسي مطيعا لنصيحتها وقالت:

ـ سأخبر زوجتك فورًا بأنّك أفقت من الغيبوبة.. ستفرح كثيرا.

وسارت نحو الباب ثمّ التفتت منبهة:

ـ بالتّأكيد قبل أيّ شيء سأخبر الطبيب.

خرجت وتركتني متعبا لا أقوى على شيء.

الغياب عن الوعي يحدّ من الألم ويخففه، ويمنع الذاكرة من تكوين أيّ ذكريات سيئة، فعندما تسترخي العضلات تأتي الراحة التامة.

بعد قليل دخل الطبيب وقام بفحصي، وقال لي مطمئنا:

ـ مع الوقت ستعود حركتك إلى ما كنت عليه.

وتركني مع الممرضة التي قدّمت لي الطّعام.. بصقت أول لقمة تناولتها باشمئزاز كبير.

قالت الممرضة بانزعاج:

ـ كأنك لم تتذوق ولم تعرف في حياتك طعاما كهذا.

رفعت يدي نحوها مشيرا بأنّني لا أريد الاستمرار في تناوله، فاستجابت لي قائلة:

ـ سأتركك الآن حتى تهدأ، وسأعود إليك مرّة أخرى بطعام غيره.

برهة وعادت لي الممرضة وفي يدها كوب، عرفت أن به دواء، وقبل أن ترحل قالت لي:

ـ لقد حاولت الاتصال بزوجتك ولكن يبدو أنّها نائمة.

وأخبرتني أنّني سأكون بخير وتركتني لأنام حتّى الصّباح، إلى أنّ تأتي زوجتي.

ـ زوجتي!

ماري

عودة الروح

الثّامنة صباحًا

أستيقظ مبكرّة وقبل أن أترك فراشي أتساءل: أي قدر معاكس سيواجهني اليوم.. أتحسّس جسدي الهزيل وأتخيل نفسي مصلوبة بدلا من يسوع، وأنال كل ألوان التّعذيب عوضا عنه.. لم أتحمل تخيل المشهد فقمت وغطيت تمثال يسوع بقطعة ملابس حتى لا يذكرني بالألم مرة أخرى.. أخذت دوائي وغسلت وجهي ثمّ غيرت ملابسي لأغادر...

قدمي متردّدة في الذهاب إليه.. أقف على مدخل المشفى بقلب موجوع ورأس مثقلة بالهواجس، ففكرة غيابه عن عالمي تقتلني، وتجعلني ألعن الدنيا وألعن الرّب على تصرفه بهذا الشكل في قدرنا.. عشنا محبطين والحياة لا تكفّ عن إحباطنا.

قدمي تخطو فوق سجاد الأرضية القاتم للمستشفى بخطوات بطيئة، وفي كل خطوة أحاول أن أبدّد لنفسي خوفي وإحباطي.. حينما وضعت يدي على مقبض الباب ابتلعت ريقي وزاد خفقان قلبي تدريجيا، دفعت الباب وأصاب نظري موضعه.. تسمّرت في مكاني مغمضة العينين نصف إغماضة، كأن الحياة بعثت فيّ مرّة أخرى.

ـ ديفيد

هتفت باسمه بمجرد رؤيته جالسًا على سريره يرنو نحوي، واندفعت إليه كما يندفع قطب المغناطيس السّالب نحو الموجب.. عانقته كما يعانق النّاجي من موت محتّم، فقد كان حقّا في عداد الأموات. عيناه ويداه جائعة، وجلده أيضا.. لقد مكث طويلا في النوم العميق.

ـ الحمد لله على سلامتك يا حبيب عمري.

ابتسم لي وقربني بيده من وجهه وطبع قبلة على شفتي، وهمس لي:

ـ كنتِ معي في أحلامي.. طيفك لم يفارقني.

ـ أنت أيضا معي طوال الوقت، لقد استجاب يسوع لدعواتي أخيرًا.

ابتعدت عنه قليلا وقلت في تردّد:

ـ لقد ذهبت إلى الكنيسة.

رمقني بنظرة دهشة وقال لي:

ـ حقّا... رائع!

وأعادني إلى حضنه مرّة ثانية وقال:

ـ افعلي كل ما يساعد في إنبات الفرحة داخلك.

قلت بتحدٍ:

ـ سأفعل.

أنا حقّا أريد أن أتخلص من تلك الحالة التي لازمتني طوال حياتي.. أريد أن أعود إلى الفرح وإلى حضن الدّنيا.. أريد أن تعود ابتسامتي وشغفي بالحياة.

فريد كمال

نقطة البداية

العاشرة صباحًا

أصعد إلى القطار عائدًا إلى القاهرة.. أحاول عدم التّفكير في أيّ شيء.. أحاول تجاهل أن أخي قتل.. فكلما أفكر في أخي يدمى قلبي وأسأل نفسي: هل كان بإمكاني إنقاذه من الموت؟ أجد نفسي عاجز عن الإجابة.. الأمر فوق قدراتي.. وأفكر أكثر فيمن سرق مني مقبرة بكلّ ما تحتويه من تماثيل صغيرة وذهبٍ، وذهبَ مع الرّيح، لا أعرف أيّ يد تجرؤ على فعل ذلك بي وبأخي!

ديفيد تعرض لحادث منذ أيام ووقع في الغيبوبة التي لا مناص منها. أحيانا يجول بخاطري ماذا لو صرفت النّظر عن ثأر أخي وتلك المقبرة واعتبار كل شيء كأن لم يكن.. للأسف لم يحظ أخي الصغير بالكثير من الحظ، لم يكمل تعليمه، ولم يتزوج، وفي النهاية لم

ينل إلا نصيبه، ولا يجب أن أعترض على حكمة اللـه.. أحاول أن أنظر إلى الجانب الآخر، فقد أنقذتني العناية الإلهيّة من الموت المحقّق أكثر من مرّة.. لماذا لا أهدأ وأصرف النّظر عن هذا الأمر المعقّد؟! ولكن نفسي الأمارة تأبى الطمأنينة قبل أن تعرف من فعل كل هذا.. من هذا الشّيطان الّذي يريد الخلاص منّ أخي بهذه الطّريقة الوحشيّة؟ إنهم يريدون تحطيم كلّ ما بنيته منذ سنوات، وأنا لن أسمح بحدوث ذلك مطلقًا. لقد عانيت حتى وصلت لتلك المكانة ولن أتركها أبدا.. لن أعود إلى الذّل والمهانة.. لن أعود إلى الفقر مجدّدًا.

لقد نسيت أيام الضنك يوم تسلّمت مرسوما من قصر عابدين مكتوب فيه ـ لا زلت أحفظ الصّيغة جيدا-:

«من الخديوي فؤاد ملك مصر بعناية اللـه تعالى، إلى صاحب العزّة فريد بك كمال، تكريمًا منّا وتقديرا لما أديتم من خدمات لصالح البلاد قد منحناكم رتبة البكوية من الدرجة الثانية، وأمرنا بإصدار براءتنا هذه من ديواننا إيذانا بها.

تحريرا بقصر عابدين القاهرة. في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة لسنة ألف وثلاثمائة وثلاث وستين من هجرة خاتم المرسلين.

صدر بأمر مولاي الخديوي المعظم.

إمضاء رئيس ديوان جلالة الخديوي»

دفعت الكثير والكثير حتى أحصل على هذا المرسوم، وأدخل عالم الطبقات الأرستقراطيّة، وأعيش بينهم مرفوع الرأس ناسيا كل ما تعلق بالماضي.

بدأت حياتي عاملا صغيرا في شؤون الآثار، مجرّد أمين على أحد المخازن،

ومع الوقت عرفت قيمة ما أحرسه، وكنت آخذ قطعا صغيرة مكسّرة أو منسية وأقوم بترميمها كمّا تعلمت من أحد الخبراء، ومن ثمّ أبيعها بمبلغ زهيد إلى الخواجات المهتمين بكنوزنا.. وفي يوم جاء لي الخواجة جيرمي كروس وقال لي:

- ائتني بتلك القطعة وسوف ترى النّعيم بين يدك.

كان قناعا لأحد الملوك. وضعت مخطّطا محكمًا حتّى أشعل النّار في المخزن وأضرب رأسي في الجدار حتى أبرّر اختفاء القطعة، وحينما هدأت الدنيا أخذتها وسافرت معه إلى بريطانيا، وعملت في تجارته وبدأت أكبر وبدأ المال يزيد معي، ولكن لم يكن بالشّكل الكافي.. كنت أرسل لأخي بعضا مما أكسب من أجل استثماره في أي مشاريع، ولكن ظل طموحي أكبر مما أحصد..

أطلق القطار صفارته إيذانا بوصوله، وعندما توقف في المحطة كنت أوّل المغادرين، وقد وضعت هدف الانتقام لأخي كنقطة مضيئة مشتعلة داخلي، إلى أن أعثر على هذا الجرو.

إدوارد

العودة الدائمة إلى خانة الصفر

الحادية عشرة صباحًا

رؤيتها كل صباح أصبح شيئا ضروريًا.. قلبي يحتاج تلك الطاقة التي تطلقها من عينيها ليعيش.

حينما فتحت باب الغرفة وجدتها في أحضان ديفيد.. ارتبكت وانقبضت قسمات وجهي وطغى عليّ شعور بالغيرة، وتناسيت أنّ صديقي قد عاد إلى الحياة وأصابتني غصّة.. هي الآن بين أحضانه مرّة أخرى، يا لحظي التّعيس، لماذا عاد من الموت

انتبهوا لوجودي.. فرحبت بي ماري قائلة:

- إدوارد تعال.. ديفيد أصبح بخير.

رسمت ابتسامة متصنعة على ملامحي وتقدّمت نحوهما وقلت:

ـ حمدا لله على سلامتك يا صديق عمري.. كنت قلقا عليك.

ابتسم لي وبعد لحظات قال بصوته الضّعيف:

ـ شكرا صديقي..

وقالت ماري بفرح:

ـ لقد عادت لي الحياة بعودته

وأمسكت يده وابتسم لها ابتسامة أغارت قلبي وجعله يتلوى وجعا.. قلت متصنّعا الفرحة:

ـ يجب أن نحتفل بهذا الحدث السعيد.

وأمنت ماري على اقتراحي:

ـ حفلة كبيرة ندعو إليها كل أصدقائنا ومعارفنا.

ـ بكل تأكيد سيكون حفلا يليق بعودة ديفيد كاميرون العظيم.

ابتسم ديفيد لي وقال بوهن:

ـ لا أعرف ماذا أقول لكم.. أتمنّى ألّا يحرمني اللـه منكما.

بادلته الابتسامة ثمّ مثلت أنّني تذكرت موعدا هامّا، بالنّظر في ساعتي التي أعلقها في عروة صدرية البذلة، وقلت:

ـ يجب عليّ الرحيل الآن لقد تأّخرت عن موعد هام.

قالت ماري:

ـ يجب أن نراك مرّة ثانية ولكن في بيتنا.

ـ متى سيخرج

ـ قال الطّبيب غدا يمكنه الخروج ويكمل علاجه في البيت.

ـ رائع.

رسمت ابتسامة، وتركتهم ورحلت.

عودة كانت مبكرة جدا لم أشبع بعد منها.. يا لحظّي التّعيس.. سأعود الآن لكتم الشّوق في صدري وإخفاء نظراتي ونبضات قلبي.

عدت إلى الفندق واتّجهت إلى الكازينو.. طلبت كأسا وجلست ألعب.. كان عقلي شاردًا فخسرت كثيرا دون أن أشعر.

صعدت إلى غرفتي ولم أجد شيئا أفعله إلا الشّرب. شربت حتّى ثملت وحتى أنسى، ولكنّي لم أنس إلى أن سقطت في النّوم.

المأمور

قضاء وقدر

الثّالثة عصرًا

أذهب إلى ديفيد بأمر من رئيسي لأخذ أقواله، حتى نغلق تلك القضيّة التافهة. اصطحبت معي الشاويش سيد، ليبدّد صمت الطريق في الذّهاب وفي العودة.. فالحكايات عند هذا الرجل لا تنتهي.. يخبرني عند الوصول إلى المستشفى قائلا بأسى:

- حقّا حزين لشفاء هذا الخمورجي.

- ليس شأنك، هذه حكمة الله.

- ترى يا سيادة المأمور، هل الله فعل ذلك لكي يعود إلى رشده ويتّقيه.

- الله لا يدير الأمور هكذا.

- يجب أن يعود إلى اللـه ويتّعظ ممّا حدث له.

- لقد حدث له شيء ألعن من ذلك، ورغم هذا لم يتّعظ بل هوى في السّكر البيّن

- ماذا حدث له

- لقد فقد الذّاكرة وماتت زوجته وابنته وطرد من عمله.

- يا لطيف يا رب.

- كانت مصائبه جمّة ورغم ذلك لم يكن اللـه في حسبانه عندما استمرّ في الحياة بعدها، بل عاد أقوى ثمّ دخل في دوامة اليأس.

- كل ما يحدث له بسبب البعد عن اللـه.. لا أستطيع التّعاطف معه.

- هو ليس في انتظار شفقتك.

ابتسمت له ونحن نقف على باب الغرفة التي يرقد بها ديفيد. طرقت الباب ثمّ دخلت، كانت زوجته برفقته فقلت:

ـ نهاركم سعيد

ابتسمت ماري لي وتابعت:

ـ حمدا لله على سلامتك مستر ديفيد.

اكتفى هو أيضا بالابتسامة لي، وقلتُ لزوجته:

ـ كيف حالك مدام ماري

ـ بخير.

ـ أتيت حتّى نغلق ملف هذه القضيّة.

ـ لا مشكلة.

ـ هو سؤال واحد وسأنصرف حتى لا أزعج مستر ديفيد أكثر من ذلك.

أومأ ديفيد لي بالإيجاب فقلت:

ـ هل تسبّب أحدهم في ما حدث لك

ـ لا أعرف

ـ هل تشك بأحد

هزّ رأسه نافيا.

ـ لكنّي سأعيد السّؤال بصورة أخرى قبل أن أنصرف، فأنت تعرف أهميتك عندنا.

لم يرتسم على وجه ديفيد أيّ تعبير فقلت:

ـ هل كان حادثا قدريا تسبّب فيه الرياح والطقس السّيئ

أجاب بصعوبة بالغة:

ـ لا أعرف.

ـ ماذا تقصد

ـ لست واثقا من ذلك، لكن هيئ لي أنّ أحدهم كان يهمس في أذني طوال محاولة عودتي بقوله «لن تعود».. وشعرت بشيء ثقيل يضربني على مؤخرة رأسي بقوة.

سألت بانزعاج:

ـ هل شاهدت أحدا

هزّ رأسه بالنّفي.. ارتاح قلبي.

ـ أعتقد أنّ الخوف هو من صوّر لك هذا، لأنّه من غير المعقول أن يهمس أحدهم في أذنك وأنت في عرض البحر ثم يضربك، ولا تراه.

ـ تفسير منطقي.. بالفعل لم أشاهد خيال أي شخص.

ـ إذن الحادث قدري.. هل تتّفق معي

تمتم قائلا:

ـ نعم.. أتفق.

ـ الآن سنغلق المحضر، وإذا احتجتم أيّ شيء أنا في خدمتكم.

وأمرت الشاويش سيّد بأن يجعل ديفيد يوقع على أقواله، فلم تستطع أصابع ديفيد فعل ذلك من قلة الحركة، فاقترحت أن يترك بصمته على الورقة، ففعل.

انصرفنا عائدين إلى القسم، وفي الطّريق قال لي الشّاويش سيد:

ـ أتظنّ يا حضرة المأمور أن الخواجة سيعود إلى الله؟

ـ لماذا تشغل نفسك بهذه الأسئلة دوما؟

ـ لأنّ الله خلقنا لكي نعبده، وإذا ضللنا الطريق يجب في النهاية أن نعود إلى صراطه المستقيم.

ـ قلت لك إنّ الله لا يدير الحياة هكذا.. لله حسابته الخاصّة في تلك الأمور.

- لكنّه يجب أن يعود إلى رشده ويعرف اللـه كما ينبغي.

وقلت له ساخرًا:

- هل تريد أن تصبح شيخا جليلا يدعو النّاس للإسلام

قال بحزن:

- كان هذا حلم والدي، لكن حالته المادّية لم تمكنه من إدخالي الأزهر.

قلت مخففا:

- أنت بداخلك الكثير من حسن النِّيَّة.. لا تفسده بالحكم على الآخرين.

فريد كمال

هذا هو ما أريده

الخميس.. السّادسة مساءً

نزلت كعادتي في فندق الخواجة ماركو.. فندق صغير ملحق به صالة صغيرة للقمار.. كنت أبحث عن أيّ شيء يلهيني عمّا حدث لي، فجلست حول الطّاولة ألعب وأشرب، وكان حظي رائعا فربحت.

رتّب الخواجة ماركو على كتفي قائلا:

ـ يومك جميل مستر فريد.

ـ أوّل مرّة يا خواجة وحياتك

وقهقهت بالضحك وضحك معي.. لملمت نقود مكسبي وقبل أن أقف لأرحل جاءني صوته بنوع من الحدة:

ـ اللّعب لم ينته بعد..

نظرت نحوه متفحصًا، كان شابًّا في أواخر العشرينيات من العمر يبدو عليه السّكر البيّن، فقلت باستهانة:

ـ لقد انتهى...

ـ أنا أريد أن أستكمل اللّعب.

تدخل الخواجة ماركو قائلا:

ـ مستر رمزي بهدوء من فضلك، أنت تعرف قواعد اللّعب هنا رجاء لا أريد مشكلات.

ـ سنلعب آخر دور ولآخر مرّة في حياتي.

قلتُ له:

ـ كم تملك من النقود

ـ الكثير

ـ أين

ـ في جيبي.

ـ إذن أخرجها وهيا بنا نلعب.

أخرج من جيبه ورقة نقدية فئة الواحد جنية، وضعه على الطاولة وقلت ساخرًا:

ـ هل أنت متأكد بأن معك ما يكفي للذّهاب للبيت؟! حقّا لا أريد أن تقطع مشوار العودة سيرا على قدميك.

قال باستهانة:

ـ لا تقلق.. أعرف كيف أدبّر أموري.

ـ إذن سنلعب، ولكن إن خسرت يجب عليك عدم المجيء إلى هنا مرّة أخرى إلى الأبد.. اتّفقنا؟!

هزّ رأسه بالإيجاب:

ـ اتفقنا.

يعتقد الساذجون أنّك حينما تلعب القمار وتخسر كل نقودك ولا يتبقى معك إلا الفتات، تستطيع المغامرة وتعويض كل خسائرك.. إنّ عالم القمار يريد منك أن

تعتقد ذلك وتؤمن بأنّك إذا بعت ساعة يدك ستربح، وإذا بعت بذلتك ستربح، وإذا بعت حذاءك ستربح.. نظام اللّعب مبنيّ على تلك النظرية أنك ستربح إذا غامرت، وسيجعلك تربح مرة أو مرتين ثمّ يعطيك القاضية وتشهر إفلاسك.

لم يستغرق رمزي معي إلا لعبة واحدة، وكنت أضع الجنية في جيبي، وبدت عليه الكسرة والحزن، فقلت له مهونا وأنا أعيد له نقوده وأقدمها له:

ـ حتى تستطيع العودة للبيت.

نظر نحو الجنية بحسرة وقال:

ـ شكرًا لكرمك مستر.

ورفع عينيه إليّ.. وأكملت له:

ـ فريد بك كمال.

ـ شكرًا لكرمك فريد بك.. أنا أعرف كيف أدبّر أموري.. لا تقلق.

وعندما هممت بالخروج من الفندق للتّنزه، وجدته جالسًا على الرصيف والحزن يغمره بلا هوادة، فاقتربت منه قائلا:

ـ طاولة عشائي خاليه اليوم من الأصدقاء.. ما رأيك لو انضممت إليها.

نظر نحوي وصمت قليلا ثمّ قال:

ـ شكرًا لك فريد بك.

ـ لا تكن خجولا من فضلك، أنا بحاجه إلى أحد ليتناول معي الطّعام.

وقبل أن ينبس بحرف أمسكته من يده وأنا أجذبه ليقف، وقلت متابعا:

ـ هيا.. لا يجب أن نترك الطّعام حتى يبرد.

في استسلام قام معي وعدت إلى الفندق. جلسنا حول إحدى الطّاولات الكبيرة... كنت أعرف أنّه جائع فطلبت له كميّات كبيرة من الأكل، وعندما انتهى تناولنا الفودكا معا على بار الفندق كما أحبّ أنا دائما.. كنت بحاجه إلى مساعد يتحمل أعباء عملي، هناك شيء داخلي قال لي هذا هو ما تريد.

ـ رمزي.. هل ترغب في العمل معي

وبدون تفكير أجاب:

ـ لا

ـ لمَ؟!

ـ لأنّني بالفعل أعمل.

ـ أين؟ ومع من

ـ ليس شأنك. أنا أعمل ومبسوط في عملي ولا أريد منك أيّ مساعدة.

ـ كم تكسب من عملك هذا

ـ ليس كثيرًا.

ـ معي سترَبح الكثير والكثير من المال.

ـ وما طبيعة عملك

ـ أنا تاجر لي العديد من الأعمال الكبيرة. أعمل في التّصدير والخشب والبورصة وغيرها، وأبحث عن شخص محلّ ثقة، ليكون مساعدا لي في الإشراف على كلّ تجارتي.

ـ ولماذا أنا تحديدا؟ أنت تعرفني للتو..

ـ صدقني لا أعرف.. بمجرد رؤيتك ارتحت لك.

ـ هل هذا كل شيء

ـ نعم.. هذا كل شيء

ـ سأفكّر في الأمر.

- حقّا.

هزّ رأسه كأنّه بدأ في التّفكير.

ديفيد

سنشرب معا

السّابعة مساءً

أعود إلى البيت.

تحسنت حالتي كثيرا، وكان عليّ مغادرة المستشفى واستكمال العلاج في المنزل، أريد أن تعود ذاكرتي كاملة في أسرع وقت، شبح النسيان لا بدّ من طرده هذه المرّة سريعا، كفى ما حدث في الماضي الذي يهبّ عليّ من حيث لا أدري، رافضا تركي وحيدًا.

حكت لي ماري عن الأفعى التي وجدتها في المنزل وكيف التهمت العصافير بأنيابها البشعة، وطمأنتني بأنّه تمّ جلب أحد صيادي الأفاعي وللأسف لم يعثر على شيء، ولكن وضعوا الشّيح والثّوم في كل مكان، لذا بدت الرائحة غريبة على كلينا، ولكن مع الوقت سنعتاد.

خلعت ماري عني معطفي ورمته على الدّيوان، وأنا أتسند عليها لأجلس في الصالون على مقعدي المعتاد، الذي تقابله مرآة كبيرة.

ـ ماذا أصنع لك

قالت لي وهي تبتسم، فقلت برجاء:

ـ كأس من النبيذ من فضلك.

ـ لكن الطبيب منعك من تناول...

فقلت مقاطعًا:

ـ من فضلك أنا بحاجه له

نكست رأسها بانكسار وراحت تخرج زجاجة، وغرزت البزال في سدادتها ثمّ شدتها بقوة، فأحدثت الفلينة صوتًا، وصبت لي ولها.. وضعت الكأس في يدي ورفعت كأسها أمامي وقالت:

ـ سأشرب مثلما تشرب.. كأسا بكأس.

ـ لا مشكلة.. منذ زمن بعيد وأنا أريدك أن تشربي، لأنّه السبيل الوحيد لإخراج الخوف اللّعين من داخلك.

ـ الحمد لله أنك لم تنس أنّي خائفة.. حتى لا تتركني مرة ثانية..

قلت بتأثر:

ـ أنت الوجع الذي لا ينسى.

ثم غيرت دفة الحوار قائلا:

ـ ما رأيك في السفر

ـ إلى أين

ـ أي مكان.. المهم أن نبتعد قليلا عن هنا

ـ ليس لدي رغبة

ـ الخمر سيجعل لديك الرغبة

ـ حقا!

أومأت برأسي لها، فقالت بابتسامة:

ـ إذن سأشرب حتّى أثمل.

ودفعت محتوى الكأس في فمها على مرّة واحدة، وقالت:

ـ سأشرب كأسا أخرى.

فقلت متهلّل الوجه:

ـ الخمر أعظم اختراع للنّسيان، عليكِ به لكن كوني حذرة من الأفعى.

انتفضت ماري رعبا ووقعت الكأس من يدها لكنها لم تنكسر.. وقفت مكانها كطفل تائه من يد أمّه.. قمت نحوها وضممتها إلى صدري.

ـ لا تخافي حبيبتي.. سأجلب بعض صيادي الأفاعي ليتأكدوا أنها لم تعد موجودة.

أجريت اتصالا بأحد الأشخاص وطلبت منه أن يجلب لي أحد أمهر صائدي الأفاعي في المنطقة، وعندما أتى لم يجد شيئا، وقال لي:

ـ يبدو أنّها فرت من المكان.

ـ هل أنت متأكّد من ذلك

ـ نعم.

ـ أتمنّى أن تكون صائبا.

تصعد برفقتي إلى غرفة نومنا لأرتاح.. تعدل لي الوسادة خلف ظهري وتقف كالمتردّدة في قول شيء ما، وهي تعض شفتها السفلى.. ثم قالت بتردد:

ـ أما زلت مصمّما على السفر.

ـ في الوقت الحالي ليس للسفر أيّ معنى.. وعلى كلٍ، إذا سافرت ستكونين برفقتي.

ـ أنا لا أريد السفر، ورغبتي في الخروج خارج هذه المدينة تتلاشى تدريجيًّا.. لم أسافر إلى بلدي منذ سنوات، لقد نسيت هذا الأمر ولا أريد تذكره.

ـ أنتِ تقبضين قلبي بحديثك هذا.. أخاف حقا أن أفقدك

ـ لا تخف يا حبيبي.

وارتمت في حضني وتمتمت:

ـ سأظل معك إلى الأبد.

ـ أتمنّى ذلك.

وطبعت قبلة على خدها وأنا أمسح على شعرها النّاعم القصير.

ـ ديفيد... أتمنّى أن تبقيني قربك إلى الأبد.

ـ أتمنّى أنتِ أن تفعلِي ذلك.

ماري

هلع

الجمعة.. السّادسة صباحًا

أتمنّى أن يبقيني قربه إلى الأبد، أنا حقّا من دونه أصبح وحيدة بكل ما تعنيه الكلمة، ويصير قلبي هشّا ومشوّشا، وتطاردني أشباح الخوف من كل مكان.

أتسلّل من جواره وهو لا يزال نائما.. وجهه يجذبني لتأمّل تلك الجاذبية التي شدّتني نحوه منذ سنوات.. لا يزال قلبي يراه الرجل الأوحد على وجه الأرض.

تتقدم قدمي بخطوات خفيفة بدون ملابس.. أنزل إلى الطابق الأرضي نحو المطبخ من أجل تجهيز الفطور.

أمسك السكين وأقطع البصل لقطع صغيرة جدًا، ثمّ أغمسه بالزيت مع إضافة الثّوم المهروس وقطع الجبن والطّماطم والفلفل البارد والبقدونس ـ بعد التّقطيع ـ

وأضعها على النار، مع فقش خمس بيضات عليها، وأترك ذلك قليلا حتى يصبح جاهزًا.

أترنح لا نهائيا أمام فكرة تتعبني دائما، ماذا لو غدوت وحيدة فعلا؟ ماذا لو استيقظت ووجدت نفسي بمفردي في هذا العالم المخيف الممتلئ بالغدر والخداع.. فقط أتساءل ماذا سيحل بي.. مجرد مرور السؤال على ذاكرتي يرعبني ويعصف بكل ما بنيته من جدران هشّة داخلي.

أسمع صوت شيء يتحرك حولي.. ألتفت نحوه فألمح ذيله وأصرخ وأنا أهرول نحو الخارج.

صعدت بسرعة البرق إلى غرفة ديفيد والخوف والهلع ينهشان جسدي.. ارتميت في حضنه.. استيقظ فزعا من نومه:

ـ ماذا حدث

أجبت بصوتي المتقطع:

ـ الأفعى لا تزال في البيت، كانت ستقضي علي.

ـ أين

ـ في المطبخ.

احتضنني بقوّة ومسح على شعري القصير وهو يقول:

ـ لا تخافي، لا يستطيع أحد أذيتك وأنا موجود.

ـ احضني أكثر، احضني حتى تبرد عظامي من حرارة جسدك

ظللت في حضنه حتى شعرت بالراحة، ثم تركني ونزل إلى المطبخ يبحث عن الأفعى وبعد قليل عاد أخبرني:

ـ سيأتي صائد الأفاعي الآن

وبعد وقت قليل كان صائد جديد قد أتى وبحث ولم يجد شيئا.

وقال ديفيد بحسم:

ـ سنترك البيت فورًا

ـ لماذا

ـ لن أكون مطمئنا عليكِ هنا.

ـ أين سنذهب

ـ إلى فندق سان ستيفانو الرمل.

ـ وماذا بعد ذلك

ـ سأسافر للأقصر لإحضار شخص بارع في اصطياد مثل هذه الأشياء، إنه المفتاح الذي سيخلصنا من هذه الأفعى للأبد

ـ لا تتركني بمفردي.. سأكون وحيدة إلى أن تعود.

ابتسم لي وقال:

ـ لن أتركك بمفردك... قلبي معكِ دائما.. وإدوارد سيكون بصحبتك إلى أن أعود

ـ لا أريد سواك.

ـ أنا معكِ إلى الأبد.

كنت بحاجه إلى الذّهاب بعيدا بمفردي منذ أن عاد وعيي وأنا أفكر في العودة إلى أوّل مدينة شهدت إنجازاتي وبراعتي، أريد أن أعيد أيام المجد الفاني.

ـ أنت لا تتخيل كم أنا بحاجة إليك.

ثمّ قال:

ـ هيّا نجهز حقيبتنا.

ديفيد

صور قديمة

الثّامنة صباحًا

مرّ زمن طويل على آخر زيارة لي لهذا المكان.. إنه يمثل تحفة معمارية في العصر الحديث، فقد بني الفندق محل قصر الكونت استيفان زيزينيا، الّذي استقرت إقامته في مدينة الإسكندرية في عام 1854 حيث قام ببناء الفندق المهندس المعماريّ بوجوس نوبار، بن نوبار باشا رئيس وزراء مصر وخريج آكول سنتر «École Centra» في باريس، والّذي كان مفتونا بالمنتجعات السياحية الفاخرة والكازينوهات التي تطل على الشاطئ الفرنسي البلجيكي، بين دوفيل في فرنسا وأوستيند في بلجيكا. افتتح الفندق في 26 يونيو 1887 حيث قام بافتتاحه الخديوي توفيق.. ويرجع سبب تسمية المنطقة باسم سان ستيفانو، إلى أن الكونت إيتيان قام ببناء كنيسة عام

1863 وسمّاها باسم القديس استيفان في نفس المنطقة.

منذ دخلت بهو الفندق أيقظت الموسيقى الهادئة داخلي الحنين، وتحركت في ذهني ذكريات متناثرة، تبدّت لي صورة الملذات التي اقترفتها في الماضي حيث النساء يرفرفن حولي كالفراشات وهن يبتسمن لي وأنا ألعب الورق، والرجال من حولي يخطفون منهن ما يشتهون.

طلبت من موظف الاستقبال النّزول في الغرفة رقم 16 فأخبرني بأنّها محجوزة، فانتابني بعض الضيق واستفسرت منه:

ـ ومتى سيرحل نزيل هذه الغرفة

ـ لا أعرف فإقامته غير محدودة.

فكرت قليلا ثمّ قلت:

ـ الغرفة 61 هل متاحة

راجع الكشف الّذي أمامه ثمّ قال لي:

ـ نعم سيّدي.

ـ إذن أحجزها.

وسألته:

ـ كم رقم الغرفة التي ينزل بها مستر إدوارد

ـ الغرفة رقم 16

ـ حقّا.

يبدو أنّه وقع في غرام الرقم مثلي.. كم أنت صديق رائع يا إدوارد.

صعد معنا أحد الخدم حاملا الحقائب، وبمجرد وضعها في غرفتنا تركت ماري ترتب كل شيء وذهبت إلى غرفة إدوارد. طرقت الباب كثيرًا ولا مجيب وقبل أن أقرّر الرحيل انفتح الباب.. تثاءب إدوارد وهو يحدّق بي فقلت:

ـ أعتذر على إزعاجك.

ـ لا تقل ذلك تفضل بالدخول.

فتح لي الباب عن آخرة وبعد مروري أغلقه وهو يقول:

ـ كنت سآتي لزيارتك اليوم.

ـ نحن من أتينا لزيارتك.

ـ حقّا.

ـ نعم.. ماري معي هنا.

سأل بلهفة:

ـ أين

ـ في غرفتنا.. سنقيم هنا بعض الوقت إلى أن نتخلص من الأفعى التي وجدناها في منزلنا.

ـ يا إلهى وما الذي أتى بها إليكم

ـ مثل هذه الأشياء لا تنتظر أسبابا حتّى تأتي.

ـ لماذا لم تأتي بصائد للثعابين كي يخلصك منها؟

ـ أتينا بكل المتاحين هنا ولم يستطيعوا فعل شيء، كانوا يستسهلون، قالوا إنّها غير موجودة في البيت، خافت وتركت المنزل.. هراء.. وفي صباح اليوم وجدتها ماري في المطبخ.. لذلك أتينا إلى هنا، فأنا لا أستطيع ترك ماري في هذا الرعب بمفردها.

ـ بمفردها! أنت معها.

ـ أنا سأذهب إلى الصعيد أبحث عن أحد صيادين البارعين مع مثل هذه الأنواع.. وماري ستبقى في عهدتك، أنت رفيقها في غيابي.

ابتسم لي قائلا:

ـ بكلّ سرور.

ـ هيا بنا نذهب إلى الكازينو، لقد اشتقت إلى اللّعب كثيرًا.

ـ وأنا أيضا اشتقت للخسارة منك.

وقهقه ضاحكا وضحكت معه... أبدل ملابسه وذهبنا.

فريد كمال

اقتراح جيد

التّاسعة صباحًا

على غير عادتي جلست حول البار في هذا التوقيت المبكر.. المكان خال، ليس به سواي. طلبت كأسا فكأسا محاولا تهدئة عقلي علّه ينسى ما حدث، ويركز في ما هو قادم.

ـ الشرب في النهار يسبب الكوارث.

التفت خلفي لمصدر الصوت.. كان الخواجة ماركو قادما نحوي.. ابتسمت له ساخرًا وقلت:

ـ لا توجد كوارث أكثر ممّا حدث..

ـ لا أعتقد ذلك مستر فريد.

وجلس على المقعد المجاور لي وتابع:

ـ أنت تعلم جيدًا أن الأسوأ لم يأت بعد.

ـ لقد أتى..

ـ ماذا حدث

ـ لقد سرقت..

ـ حقًّا! فريد كمال سرق! وما الذي سرق منك

قالها كالمذهول.

ـ ليس مهمًّا ما سُرق.. المهم من سَرق.

هزَّ رأسه واستفسر بسذاجة:

ـ من فعل ذلك

ـ لا أعرف.. سأصاب بالجنون لو أفلت منّي هذا الحقير.

ـ هل لديك أعداء

ـ لا أعرف لكن...

وصمت مفكرًا في سؤاله.

ـ لكن ماذا

ـ لا أعرف حقّا إذا كان لي أعداء أم لا.

ـ كيف لا تعرف!

ـ هذه هي الحقيقة، فلم أدخل في صراعات مع أحد من قبل

ـ الأمر حقّا محبط مستر فريد.

ـ محبط أكثر مما تتخيل مستر ماركو.

ـ لماذا لم تبلّغ الشرطة

ابتسمت له ثمّ ضحكت قائلا:

ـ هذه الأمور يجب ألّا تتدخل فيها الشّرطة على الإطلاق.

صمت ماركو مفكرًا في كلامي، ثمّ قال كأنّ الفكرة لمعت فجأة في عقله:

ـ لماذا لا تذهب إلى الشيخ رمضان أبو عصران

وقلت متهكّما:

ـ وماذا سيفعل لي هذا الشّيخ هل سيدعو لي بعودة مالي؟!

ـ إنّه يعلم الغيب، لقد ساعدني عندما سرقت مجوهرات زوجتي.. أتذكر تلك الحادثة.

ـ نعم أذكرها كان ذلك منذ عدّة سنوات

ـ وقد استطاع أن يدلّني على السارق بسهولة، بعدما يئست من رجال البوليس.

ـ وهل هو مضمون

ـ بكل تأكيد

ـ كم أخذ منك

ـ القليل جدا.. إنّه يرضى بأيّ شيء

وطلبت كأسا أخرى، وشربت وأنا أفكّر في ذلك الشّيخ.. هل من المعقول أن يكون هو القادر على أن يدلني على قاتل أخي وإعادة كنوزي؟!

فريد كمال

سأتبع هذا

السبت.. الثالثة عصرًا

عانيت حتّى وصلت إلى هذا المنزل المهجور الّذي يحمل بين طيّاته ذكريات كثيرة، لأناس عاشوا في كنفه سنوات طويلة ثمّ فارقوه تاركين خلفهم صمتا مطبقًا.

عند التصفيق بيدي وأنا أردّد:

- هل هناك أحد؟ يا أهل الدّار...

ظهر لي رجل يحمل جسده بصعوبة، مستندًا على قدم واحدة تجاور قدمه المعاقة التي لا يستطيع الارتكاز عليها بشكل كامل. تقدم نحوي بلا عصا يتّكئ عليها وقال:

- فريد كمال حرامي الآثار.. يا أهلا بك

قلت مذهولا:

- نعم!

- تعمل بالتجارة أمام الناس ولا أحد يعرف مصدر ثروتك الحقيقة.. لا أحد يعرف أنّ الحكاية بدأت معك بتهريب قطعة آثار صغيرة خارج البلاد، وعندما وجدت الأمر مربحا قرّرت أن تمتهن مهنة حرامي ومهرب الآثار.. وبمساعدة عالم الآثار المسكين مستر ديفيد، جنيت الكثير من المال، وكانت الانطلاقة الحقيقية لك.

- كيف تعرف كل ذلك

- ليس المهم كيف عرفت.. المهم هل هذا صحيح أم لا؟

هززت رأسي في استسلام:

- نعم صحيح..

- اتبعني حتى نصل إلى مجلسي.. كما ترى لا أتحمل الوقوف كثيرًا بعد إصابة قدمي الّتي أتمنّى أن تشفى

في أسرع وقت، فهي تعيق التّقدم في حياتي.

وسار أمامي حتَّى دخل إحدى الغرف ودلفت خلفه. المكان أنيق من الداخل لا يشبه أيّ شيء في هذا المنزل إطلاقا. جلس الرّجل على كرسي عملاق وأمامه موقد يتصاعد منه دخان البخور، وأشار لي بالجلوس عن يمينه فجلست.

ـ فريد كمال..

ـ نعم!

ـ رحلة الإسكندرية لم تكن موفقة أليس كذلك؟!

هززت رأسي مؤمنا وقلتُ:

ـ لم أصل لأيّ شيء هناك.. طريق مسدود

ـ ولن تصل لشيء.

ـ وإذا طلبت مساعدتك.

- يجب أن نتّفق أوّلا.

- كم تريد من المال

لكنه تعفّف وأخبرني بأنّه لا يريد شيئا لنفسه، وإنّما يريد ما يرضي الأسياد، فبادرته قائلا:

- وأنا تحت أمر الأسياد.

طلب مني الخروج ليختلي بنفسه بعض الوقت في الغرفة، نفذت أوامره وخرجت وأغلقت الباب عليه.

رحت أفرك أصابعي ذهابًا وإيابًا في انتظار خروجه.

دقائق وفتح الباب وطلب منّي الدخول والعودة إلى مكاني السابق، وقال لي:

- الأسياد موافقون على مساعدتك، لكن لهم طلبا صغيرا.

فقلت متلهفا:

ـ ما هو

أخبرني وهو يرنو إلى الأرض.

ـ قطعة من الذهب لا تقل عن نصف كيلو جرام

ـ ذهب! هل حقّا الأسياد يريدون ذهبا؟!

تساءل الشيخ في ريب:

ـ هل هناك أيّ اعتراض؟!

ـ لا، لكن قل لي بأنّك أنت من تريد قطعة الذهب لا الأسياد.

ـ هل ستفرق معك

ـ بالتّأكيد تفرق، على الأقل سأعرف أنّك نصاب.

ـ إذن يجب أن تنقذ نفسك وترحل فورا، حتى لا تقع ضحية للشيخ دجّال ونصّاب يلعب بالبيضة والحجر.

ـ أريد أن أتأكد من مصداقيتك.

ـ أخوك أنور...

حملقت فيه بعين مندهشة فتابع:

ـ ألم يُقتل؟!

ابتلعت ريقي في صعوبة وقلت:

ـ كيف عرفت

ـ هذا ليس شأنك.

أطرقت مفكرًا ثمّ قلت مهدّدًا:

ـ سأدفع لك كل ما تطلبه، ولكن إذا لم تعد لي مقبرتي كاملة وتدلني على قاتل أخي، سوف أقتلك أنا.

ضحك ضحكة مقتضبة ثمّ قال:

ـ أعيد لك مقبرتك موافق.. ولكن أدلك على قاتل أخيك هذا مستحيل.. ليس لي به علم ولا لأحد.

ـ معرفة قاتل أخي أهم مليون مرة من المقبرة

ـ هذا ما أستطيع أنّ أقدمه لك

فكرت قليلا وقلتُ:

ـ موافق

ـ ستدفع لي أجري المتمثل في ألف جنيه، عندما تصبح مقبرتك بين يديك.. أمّا قطعة الذهب ستظل معك ولن آخذها منك مطلقًا، فليس لي حاجة بها.. ولكن التسليم سيكون في الأسبوع الأخير من هذا الشهر.

ـ لماذا؟!

ـ حينها سنودع العنب والتّين.

ـ وما فائدة هذا

ـ إنّها أشياء لها علاقة بحركة الأقمار.. أشياء كبيرة ومعقدة لا تشغل بالك بها.

الخواجة ماركو

حتى تسير الأمور وفق إرادتي

فريد كمال مثله مثل كل الطماعين، لا يرضون بالقليل، ومن أجل ذلك كان يجب أن أعلمه درس العمر حتى يعود كما كان، حرامي آثار حقيرا ووضيعا، فمن غير المعقول أن يحظى هذا النذل بكل هذه الثروة دون تعب، وأنا أظل هكذا غارقا في الديون التي لا تنتهي.. منذ عام طلبت منه أن يقرضني مبلغا من المال، ولكنه رفض رغم كل توسلاتي قائلا:

- لا أسلف أحد ولا أستلف من أحد، هذا مبدئي في الحياة.

إلى أن تعرّفت على رمضان أبو عصران منذ سبعة أعوام، كان يوهم البسطاء بقدرته على معرفة الغيب، يقرأ الكف ويفتح الودع، لكن حظه قليل، فلم يكن يذهب إليه الكثيرون، لأنّهم ببساطة لا يملكون المال..

قدمت له كف يدي ليقرأ لي المستقبل وقبل أن يهمّ بفعل شيء قلت له:

ـ ما رأيك في أن تربح أضعاف ما تكسبه في عشر سنوات، في شهر واحد.

حدق بي والدهشة تنهش ملامح وجهه المحترق من الشّمس.. قدمت نفسي له:

ـ أنا مستر ماركو، أملك فندقا صغيرا في القاهرة، ويأتي إليّ العديد من الأغنياء الذين لم يتعبوا في ربح أموالهم.

ـ وما فائدتي أنا

ـ أنت تعرف جيدًا أنّ الحياة بها العديد من المنغصات، وأمثال هؤلاء على استعداد لدفع أيّ شيء، حتى تقول لهم إنّ الحياة حلوة وبها أمل..

ـ لم أفهم مقصدك.

ـ ستفهم كلّ شيء عندما تسافر معي إلى القاهرة.

ـ لا أستطيع أن أسافر وأترك شريكي بمفرده.

ـ فلتأت به معك.. وهناك ستتغير الحال بكل تأكيد.

كان رمضان حلا مناسبا من أجل أن أتخلص من ديوني، وبدأت أمهد داخل فندقي لأهمية الشيخ رمضان أبو عصران، وقرّرت فعل حدث جلل يتكلّم عنه الجميع.. قمت بسرقة مجوهرات زوجتي ودفنتها في مكان ما في حديقة الفندق، وأبلغت البوليس، وانتشر الخبر بين الناس أنّ مجوهرات زوجة الخواجة ماركو قد سرقت. كلّفت وهدان شريك رمضان حينذاك بأن يأتي إلى فندقي على أنّه أحد النّزلاء، وذلك بعدما غيرت من هيئته وجعلته مثل البكوات، وتصنع عدم معرفته بي.. وأمام جمع من النّاس اقترح وهدان أن أذهب إلى الشيخ رمضان وقال إنّه يستطيع معرفة الغيب وإنّه ساعده من قبل في حل قضية مشابهه لقضيّتي.. وبالفعل أخذت بعض نزلاء الفندق الذين تطوّعوا بالذهاب معي إليه، وهناك قابلنا رمضان بحيله

التي اتفقنا عليها، وأبهرهم بأنّه يعرفني ويعرف كل شيء عنّي، حتّى نزلاء الفندق كان يعرفهم، لكنّهم لم يصدقوا حديثه عندما قال لنا بأنّ المجوهرات مدفونة في المكان كذا في حديقة الفندق، والسّارق قد هرب ولن يعود مجدّدًا. رجعنا إلى الفندق وحفرنا في الحديقة في المكان الذي أشار إليه الشيخ وكانت الفرحة الكبرى. وجدنا المجوهرات ومن يومها والكل يختصر المسافات ويذهب إلى الشيخ رمضان أبو عصران.. أمّا وهدان فلا أعرف كيف ومتى انضم للعمل مع فريد كمال، وترك العمل معنا وغاص في التجارة معه ونسي أمرنا.

عبيد

دخان بلا نار

الثلاثاء.. العاشرة صباحًا

«أقسمت عليك أيّها الثعبان لهذه الكافات وما فيها من الكفايات وأسرارها التامة، فلا تؤذني بأنفاسك السامة، وأن تأتي أمامي خاضعا خاشعا وإلّا كنت من العاصين لله ربّ العالمين...»

حاوٍ، وهذا وصف غير دقيق لمهنتي ابتدعه النصابون الذين يسحرون أعين الناس للحصول على الأموال، لذا فالمسمى الصحيح هو صائد الثعابين والأفاعي وأيّ نوع من أنواع الزواحف الضارة.

توارثت هذه المهنة عن أبي الذي ورثها عن جدي. أعمل بها ليس لأنّها الشيء الوحيد الذي كان متاحا للعمل، بل لأنّي أحببت هذه المهنة منذ طفولتي.

يستعين بي الناس عند شعورهم بوجود ثعبان في منزلهم أو مزارعهم.. أتعرف على الثعابين عن طريق الشم، وبسبب سر المهنة لن أستطيع البوح عن آلية كشفي للثعابين، وليست المشكلة في معرفة هل هذا المكان به ثعبان أم لا؟ إنما الخطورة في كيفية التعامل معه بعد الكشف عن مكانه.

في العادة عندما أذهب لصيد ثعبان آخذ معي ثعبانا آخر، حتّى أستخدمه كفخ، إذ تساعد رائحته في جذب الثعابين للخروج من مخابئها، ظنّا منه أنّه صديق، ولكن ليست في كل مرة تفلح الحيلة، فألجأ لاستخدام أنفي، أبحث عنه مثل الكلب الجائع حتّى أجده، فأعيد عليه القسم، وعند خروجه من جحوره وديعا هادئا أعطيه الأمان كما أعطاني الأمان.

تعاملت مع أنواع كثيرة من الثعابين، وكان أخطرها الكوبرا والطّريشة والعمية والأرقم والجداري، وتعلمت كيفية مواجهتها والسيطرة عليها.

نصيحة، لا تقتل ثعبانا أمام ثعبان، ولا تتركه مقتولا حتّى لا يأتي وليفه وينظر في عينيه ويعرف القاتل، فالثعابين تحتفظ بصورة قاتليها في أعينها، وحينها ستظل مطاردًا طوال حياتك.. ففي حادث مريب حدث منذ أشهر في قرية قريبة من هنا، لاحظ ثلاثة من الرجال الجالسين في مراقبة أغنامهم الوديعة، وجود ثعبان ينخر بجوارهم، فقاموا بحرق كتلة من القش الموجودة بجواره حتّى يتمكّنوا من حرقه، وعندما اشتدت النار ظهر أنّهما اثنين من الأفاعي وليس واحدا كما كانوا يعتقدون، وهما يحاولان الفرار.. تمكن أحد الرجال من ضرب أحدهما على رأسه بواسطة عصاه التي يهش بها على غنمه، فسقطت الأفعى مكانها قتيلة، بينما فزع الآخر هربا. وفي اللّيلة التالية ذهب أحدهم ليملأ سطل الماء للشرب، وفي أثناء ذلك رأى ثعبان الأفعى وكانت نظراته مخيفة، وقبل أن يضربه الرجل كانت الأفعى قد هجمت عليه ودست سمها في دمه، ولم تنجح معه أيّ وسيلة لإسعافه ومات.. وفي اللّيلة الثّالثة هاجمت الأفعى الرجلين الآخرين وهما نائمان بجوار الأغنام في ساعة

الظهيرة وانقضت عليهما.. كان الحادث غريبا ومرعبا وظل حديث الناس جميعا طوال الأيّام الماضية.

دون مقدمات صاح أحدهم بلهجة عربية مكسرة:

- عبيد.

لم أرد.. تقدّم صاحب الصوت بخطوات نحوي، حتّى وقف أمام فتحة العشّة بملابسه الإفرنجية والبرنيطة تعلو رأسه، بينما أنا جالس مسترخٍ والجوزة في يدي، وأمامي جذوات مشتعلة من الحطب أستدفأ بها في هذا الجو البارد.

- عبيد.

ردّد اسمي مرّة أخرى. توقفت عن شفط الدخان ونظرت إليه مستغربا وأطلت النّظر إلى وجهه، ثمّ قمت من مكاني وأنا أضع الجوزة جانبا وأصيح بفرح:

- مستر ديفيد.. يا مرحبا

ابتسم وهو يمد لي يده.

ـ كيف حالك يا عبيد.

ـ بخير يا خواجة.. أحمد الله أنّي رأيتك مرة أخرى.

ارتسمت ابتسامة رضا على وجهه الأبيض المشبع بالحمرة، وقلت له مرحّبا بيدي:

ـ تفضل بالدخول.

تقدم إلى الداخل بخطوات متفحّصة للمكان، ثمّ جلس حول الجذوات المشتعلة قائلا:

ـ كيف تعيش في هذا المكان

تناولت الجوزة وجلست بمقربة منه وقلت:

ـ لقد اعتدت على ذلك.

ردّ بأسى:

ـ إنّها حياة صعبة.

ـ عندما يعتاد الإنسان على شيء، ويتكيّف على ممارسته كل يوم، يصبح أمرا هيّنا.

سحبت نفسا عميقا من الجوزة فتوهج الحجر احمرارا، وسألني:

ـ هل ما زلت تعمل معهم

ـ تقصد هيئة الآثار!

أومأ برأسه فأجبت:

ـ لا، لقد استغنوا عنّي منذ فتح مقبرة توت عنخ آمون، بعدما اتّهموني بالتّقصير في المهام المكلف بها.

قال ساخرا:

ـ إنّهم لا يهتمون إلا بالنّتائج فقط.

تمتمت بحسرة:

ـ لا عزيز لديهم.

ـ لديك كل الحقّ.. لقد تركوني سريعا بعدما أصبحت عديم الفائدة لهم.

ارتسمت سحابة من الحزن على وجهه، كأنّه تذكّر الماضي الذي سحقه تحت نعاله بلا رحمة، فخففت عنه قائلا:

ـ وجودك معي الآن يدلّ على أنّكَ ذو فائدة، لا أحد يعبر ما مررت به إلّا إذا كان قويا ومثابرا.. أنت عظيم يا خواجة.

ـ لا تبالغ يا رجل.

ـ أنا لا أجامل.. هذه هي الحقيقة.

وسألته في خبث:

ـ هل ما زلت تعمل مع فريد بك كمال

سأل في استنكار:

ـ كيف عرفت أنّني عملت معه؟!

ـ الناس لا تكف عن الحديث يا خواجة.

ـ يبدوا أنّهم لن يكفوا عن الحديث عنّي.

وطفت ابتسامة بائسة على ملامح وجهه، وقال:

ـ هل تتذكّر أوّل يوم شاهدتك فيه

هززت رأسي.. فتابع قائلا:

ـ كان عام 1902

أومأت برأسي وشرد عقلي قليلا.

«لم يكن باليد حيله وقتها، بعدما ضاقت الحال وغاب الرّزق، واشتغلت في الحفر في الجبال بحثا عن الآثار. كنّا نتقاضى ما يكفي للطعام والشراب ولم يكن أمامي إلا الاستمرار، فلم تعد مهنة صياد الثعابين تكفي للعيش. كنت أخطّط للزواج والاستقرار، ولكن مع هذه المهنة تلاشت الفكرة تماما من مخيلتي.

كان الجو حارا، وكنّا قد اكتشفنا مقبرة جديدة، بعدما استغرقنا قرابة الشهرين في العمل بحثا عنها.. حينها تقدم مستر ديفيد يلقي نظرة على المقبرة من الداخل، وبحركة خاطفة هاجمته حيا، لكنه تفادى ضربتها وهرع إلى الخارج صارخا، وعمّ الذّعر بين الجميع، واندفعوا بعيدا عن المكان، لكنّي ظللت كما أنا، وبحكم مهنتي وجدت نفسي أتقدّم إلى داخل المقبرة، وبدأت في ممارسة عملي ولم تمض إلا نصف ساعة حتّى خرجت لهم والحيّة في يدي مستسلمة لي تماما.. اقترب منّي مستر ديفيد وهو يصفّق لي قائلا:

ـ برافوو... برافوو

ابتسمت له مزهوا بهذا الإنجاز العظيم

ـ ما اسمك

أجبت:

ـ عبيد.. خدّامك عبيد يا خواجة.

- من الآن أنت صائد الثّعابين والأفاعي الرّسمي لمجموعتي البحثية، سأكلّم المسؤولين لكي تشغل هذا المنصب براتب جيد.

وأوفى الخواجة بوعده وتعدّلت الحال.»

- عبيد.

انتبهت لصوت الخواجة فقلت مرتبكا:

- هل تودّ شرب الشّاي

- OK

تناولت الكنكة وملأتها بالماء من القلّة، ومددت يدي تحتي وأخرجت لفافة بها الشاي والسّكر، وكوز صفيح صغير، ووضعت تلقيمة في الكنكة ثم وضعتها على الجذوات المشتعلة، وفي الكوب وضعت مقدار صغيرا من السّكر بواسطة باطن يدي.

- هل حياتك هادئة

وضعت الجوزة في فمي وسحبت نفسًا وأنا أفكر في رد مناسب على السؤال، وأجبت:

ـ هادئة إلى الحدّ الذي يجعلني غير مهم لأحد.

ـ أين زوجتك زينب

ـ لم أتزوجها.

ـ لماذا

ـ بعد طردي من العمل ضاقت الحياة بي.. أكسب قوت يومي بصعوبة بالغة.. أكسب ما لا يكفيني، فكيف أفكر في غيري

بدا على الخواجة التّأثّر بما قلت، فلم أنبس بكلمة أخرى والتزمت الصمت.. انتبهت إلى الشاي الذي كان على وشك الفوران، فالتقطته بسرعة وصببته في الكوب وقلبت بالملعقة المعدنية، ثمّ قدمته إليه، فقال:

ـ شكرا

رشف منه رشفتين ثمّ قال:

ـ لقد أتيت إليك هربا من تلك الحياة التي أعيشها، وبحثا عن ذلك الرّفيق الذي كان يحبّني قديما.

فقلت محاولا الابتسام:

ـ ما زلت أحبّك يا خواجة.. اطمئن.

ـ من أين تأتي الطّمأنينة وكل ما حولي خراب.

ـ من الرضا.

ـ يسوع فقط هو من كان يرضى بكل شيء.

فقلت في سذاجة:

ـ وأنت لا تقل عنه في شيء.

فانفجر ضاحكا، وتطايرت بعض قطرات الشّاي على ملابسه، وراح يسعل من شدّة الضحك، وقال وهو على هذه الحالة:

ـ هل تعرف من هو يسوع

فأجبت في بلاهة:

ـ صديق لك!

فواصل الضحك وأنا لا أعرف على ما يضحك، وبعدما هدأ، أوضح:

ـ يسوع هو نبي اللـه.. أو عيسى كما هو متعارف لديكم، وهو بن العذراء مريم.

وقلت في سرّي متأسفا:

ـ أستغفر اللـه العظيم من كل ذنب عظيم.

ثمّ لمت الخواجة قائلا:

ـ لماذا لم توضح لي يا خواجة من البداية؟ لقد جعلتني أرتكب ذنبا عظيما.

ـ اللـه كريم.

وابتسم لي وراح يرتشف من كوب الشّاي بتلذّذ، وعندما انتهى، وضع الكوب على الأرض وقال وهو يبتسم:

ـ كنت مفتقدا لكل ما كنا نمارسه في الماضي، الشّاي والطعام المصريّ الأصيل وسذاجتك...

اقتضب وجهه وتبدّلت ملامحه وظهر عليه الحزن.

ـ ما بك يا خواجة

ـ أشعر بالاختناق.

ـ من ماذا

ـ من تلك الحياة اللّعينة.

ـ كل شيء سيكون على ما يرام.. ثق بالله.

ـ لم أعد أثق بأحد.

ـ لا تقل ذلك الله كبير.

ـ أتمنّى أن يساعدني حقّا.

ـ بالتّأكيد سيساعدك.

وهبط الصّمت علينا، كأنّ الكلام انتهى وانتهت معه نيران الجوزة فقلت له:

ـ هل تحبّ السير معي في البلد.

ـ بالتّأكيد تسرني رفقتك.

* * *

حملت أدوات عملي وخرجت مع الخواجة، نسير في شوارع البلدة الفقيرة بحثا عن رزق لي. أنادي بين الحين والآخر حتّى يعلم النّاس بوجود صائد الثّعابين لعلّ أحدهم يحتاجني. كان الخواجة مهموما لا يتحدّث كثيرا على غير عادته، لكنّه كان مطمئنا وهو يسير بجواري ويتأمّل بيوت البلدة الفقيرة المتهالكة، صاح أحدهم:

ـ يا عبيد.. يا عبيد

التفت خلفي فأشار لي رجل في مثل عمري بأن أذهب إليه. اقتربنا منه فقال لي:

ـ هناك أفعى تسكن بالبيت.

ـ منذ متى

ـ لا أعلم ولكن شاهدتها اليوم في الفجر.. كانت تلتهم دجاجة صغيرة وعندما حاولت ضربها بقطعة الخشب فرّت هاربة.

ـ كم ستدفع لي

ـ كم تريد

ـ ما بوسعك دفعة.

ـ سوف أعطيك «ذكر بط» هو أفضل ما لديّ حاليا.

نظرت إلى الخواجة فابتسم لي فقلت للرّجل:

- موافق، إنّه رزق الخواجة ديفيد.. سيتناول البطّ اليوم على الغداء.

وضحكت مقهقها ثمّ قلت للرّجل:

- لنبدأ في العمل.

عدت إلى البيت ومعي «ذكر البطّ» في يدي اليمنى، وفي اليد الأخرى الأفعى تتلوي في شكارة كبيرة مربوطة بإحكام، وقلت للخواجة:

- سأصنع لك طعاما شهيّا لن تنساه أبدا.

ابتسم لي ولم ينبس ثمّ قال:

- ماذا تفعل بالثّعابين والأفاعي بعد صيدها.

- أتناولها على الطّعام.

وقهقهت في الضحك ثمّ قلت بجديّة:

ـ لكل شيء نصيبه، ففي بداية هذا الشهر بعت أفعى لشخص ما.

ـ لقد أتيت إليك من أجل أن تخلصني من أفعى تسلّلت داخل منزلي في الإسكندرية.. حاولنا كثيرًا ولكن الجميع فشل.. كل من جلبناهم ليخلصونا فشلوا.. وزوجتي خائفة جدًّا من دخول البيت والبقاء به بمفردها.

ـ متى تزوّجت

ـ منذ سنوات.

قالها بأسى وندت عنه تنهيدة تنم عن خيبة أمل كبيرة، سألت بتحفظ:

ـ هل أصابك النّدم

ـ لا.. لا.. الأمر ليس كذلك.

وصمت قليلا ثم ّتابع:

- سأحكي لك ولكن في طريق عودتنا إلى عروس البحر الأبيض.

ديفيد

فلاش باك

عشت ستة أشهر عاجزًا تماما عن فهم أيّ شيء، لا أشعر إلّا بألم متقطّع منبعث من مؤخّرة رأسي.. وعندما أفقت من توهاني تذكرت أنّني كنت في خيمتي أراجع الرسوم والخرائط الخاصة بالمقبرة الجديدة، التي كنت على وشك اكتشافها، بمفردي كما كنت أحب ّدائما... أحسست حينها بصوت أقدام تقترب منّي، فقمت والمصباح في يدي أتطلّع الأمر في الخارج فلم أجد شيئا، وعندما أدرت عائدًا إلى الداخل، هوت ضربة قويّة على رأسي وسقطت في غيبوبة، ثمّ فقدت الذاكرة.

عرفت أن زوجتي أخذتني وعادت بي إلى إنجلترا وعرضتني على العديد من الأطباء، أخبروها جميعا أن حالتي ميؤوس منها، فدخلت دوّامة حزن علي ورمت بنفسها في مستنقع الإدمان، إلى أن ماتت بجرعة زائدة.. وأختي الصغيرة تخلّى عنها صديقها بعدما

أصبحت حبلى منه، فشعرت بخوف من مواجهة العالم مع طفل قد هرب أبوه، بينما أخوها الأكبر وسندها في الدنيا فقد ذاكرته، وزوجته غرقت في بحر المخدرات فقرّرت الانتحار بشجاعة تحسد عليها. حقّا أنا فخور بأختي لأنّها وصلت لدرجات القوة المطلقة.

وأخيرًا عرفت أنّ المقبرة التي كان من المقرّر أن أكتشفها أنا، وتنضمّ إلى سلسلة المقابر الّتي اكتشفتها، قد نسبت إلى صديقي إدوارد، لكني لم أحزن، فقد كنت أحبّه وما زلت أحبّه، وهو كان يستحقّ أن يكتب اسمه في التّاريخ بجوار اسمي.

في تلك الأيام تشوشت صورة الربّ في ذهني، واجتاحتني رغبة عارمة في أن أبتعد عنه، حتّى يرحمني ويكفّ عن ملاحقتي والتّلذّذ بتعذيبي.

هناك حلم لازمني في تلك الفترة كان يتكرّر في منامي كظلي. كنت أنا القاضي وقد قرّرت محاكمة الرّب. الكتاب المقدس على مقعد المتّهمين في القفص، ونسخة أخرى منّي كانت تمثل رأي المدعي العام، الذي

وقف صارخا: لقد اقترف الرّب على امتداد التاريخ، الكثير من الجرائم بحق الإنسانية وحقي.. أصابني في عملي وجعلني أفقد الذاكرة، وأفقدني زوجتي وساعد في انتحار أختي.. دمّر حياتي وسحقني بطرف نعله.. هذا الرّبّ فاقد للأهلية لأنّه يعاني من خرف شيخوخي شديد، وهنا حكمت بصفتي قاضي القضاة بإعدام الرّبّ، وعلى الفور نفذت الحكم.. أخرجت مسدسي ووجهت خمس طلقات نحو السماء.. لكن مع مرور الوقت عدت لأحبّ الله وازداد إيماني به، بعدما عدل حياتي إلى الأفضل وقدم لي ماري الهديّة الغالية.. لقد احتفظت بتمثال يسوع في كل مكان في البيت.

تجاوزت تلك المرحلة تدريجيا وعدت لأؤمن برقم حظي مرة أخرى.. كان أبي قد قال لي وأنا صغير أن لكل امرئ رقم حظ، فابحث عنه فهو مصدر إلهامك في هذا الكون المزري.. وأخبرتني عرافة بأن رقم حظي قريب جدا من عمري.. ووجدت ضالّتي في الرقم 16 وساعدني النّرد في بناء حياتي مرّة ثانية.

عملت مع فريد كمال في التّنقيب عن الآثار وبمساعدة رقم حظي قدمت له ثروات مهولة. لقد انتشلني من فشلي ومدّ لي يد العون والمساعدة في العودة مرة أخرى للحياة.. لم يكن يبخل عليّ بأيّ شيء، وكان يوفر لي كل ما أطلبه ويعطيني الكثير من المال.. في يوم ما في أثناء التنقيب، وجدت بعض البرديات والخرائط تشير إلى وجود مقر للتجارة الإغريقية في العصر الفرعوني، وأشارت إحدى البرديات إلى وجود لوحين من الجرانيت الأسود، كتب عليها منشورين طبق الأصل.. وبالبحث وجدت أن تخميني صحيح... في عام 1899 تمّ العثور على لوحة رائعة من الجرانيت الأسود يبلغ ارتفاعها 190سم تدعى لوحة نفراتيس، كانت تشير إلى قرار الفرعون «نفتانيو الأول» بأن تؤول نسبة العشر من الضّرائب المفروضة على أنشطة وتجارة الإغريق، إلى خزانة معبد الآلهة «نيت».. ووجدت في مصدر آخر أن هناك لوحة بنفس تلك المواصفات أمر بوضعها على مدخل بحر الإغريق في المدينة المسمّاة «تونيس» ولقد كانت «هيراكليون - تونيس» تبعا لهيرودوت ميناء الدخول الإجباري

لمصر لكل السفن الأجنبية منذ الدولة الحديثة.. ولم أصدّق ما كنت أقرأ وغمرتني السعادة، وقلت لنفسي حينها:

- إنّ فرصتك للمجد يا ديفيد قد أتت.

قرّرت حينها أن أجمع أكبر قدر من المال، بالعمل بشكل أكبر في التنقيب ثمّ استثمار ما أكسب في البورصة، إلى أن جمعت ما يكفي لانتشال اكتشافي العظيم.

ذهبت إلى الإسكندرية وعاينت المكان جيّدًا وقرّرت اشتراء أكبر قدر ممكن من المساحة، المحتمل غرق المدينة الإغريقيّة قبلها. شيّدت منزلا كبيرًا للإقامة فيه مع زوجتي. صرفت الكثير على المعدات والعمال وأتيت بالباحثين والمتخصّصين ولا فائدة، ورغم أنّ الخرائط تشير إلى المكان الذي نعمل عليه، لم نصل إلى أيّ شيء وكان عليّ التوقف عن البحث والعودة مرة أخرى للقراءة عن تلك الفترة جيّدًا.. حيث إن هناك خطأ غير واضح قد وقعت فيه، وكرّرت البحث أكثر من مرّة ولم أجن غير الفشل تلو الفشل، إلى أن

يئست من جدوى هذه المهمة، ثمّ نويت التوقف نهائيا عن هذا الحلم اللّعين. مؤخّرًا تغيّر كل شيء ووضعت يدي على أول الطريق الصحيح، فما حصلت عليه من إشارات ودلائل، كفيل بأن أتأكد من أنّني صرت قريبا من الوصول إلى هدفي الذي طال انتظاره.

ماري

كما لم أفعلها من قبل

السّابعة مساءً

إنّها مأساة أن أعود إلى غرفة لا ينتظرني فيها أحد...

تركني ديفيد وحيدة على الرغم من أنّه يعرف أنّني لا أتحمل كوني بمفردي، فلا إدوارد أو غيره يعوضاني غيابه.. لا شيء في هذا الكون يكمل ما يتآكل من فراغك يا حبيب عمري. أخاف دائما من فقدانك وأخاف أكثر من أن أظلّ وحيدة.. متى تعود وتضمّني إلى حضنك الدّافئ

طرق الباب.. كان إدوارد يبتسم لي وهو يقول:

ـ مساء الخير سيدة ماري.

كل يوم منذ أن تركني ديفيد يأتي إدوارد، يرافقني طوال النهار في تمضية الوقت، يخرج معي ويأكل

ويشرب ونذهب إلى السينما.. لم أحب صحبته قطّ، لكنّه كان خيارًا أفضل بكثير من الوحدة.

ـ كيف حالك اليوم

ـ بخير.. لا ينقصني إلا عودته.

قال بشرود:

ـ سيعود لا تقلقي..

ثمّ اِستطرد قائلًا بحماس:

ـ إلى أين تريدين الذّهاب اليوم

فكرت قليلا ثمّ أجبت وأنا أمط شفتي:

ـ لا أعرف.

ـ ما رأيك في الذهاب إلى رحلة بحرية لنصطاد السمك ثمّ نأكله.

ـ لا بأس.

ثمّ استطردت قائلة:

ـ أريد أن أشرب.

استفسر قائلا:

ـ ماء.. هذا هو قصدك!

ضحكت من قوله، وأوضحت:

ـ ما يذهب العقل ويساعد على النسيان.

قال مندهشًا:

ـ حقّا.

تمتمت:

ـ نعم.

ـ لماذا كل هذا التغير

ـ أريد أن أجرب فحسب.

ـ وهل تريدين الشّراب الآن؟

نظر في ساعته وهو يقولها فقلت:

ـ أريد أن أتعود على الشرب في أيّ وقت.

ـ هذا أمر ليس جيدا على صحتك المنهكة.

ـ لكنّه سيساعدني على العيش بهدوء.

ـ هو لا يأتي بالهدوء مطلقا.

ـ إذا أجرب والحكم يكون لي.

هزّ رأسه في استسلام.

طلبت كأسا مزدوجة من الكونياك، وطلب إدوارد كأسا من الفودكا، وجلسنا في كازينو الفندق، وبعد قليل طلبت منه أن ألعب البوكر، فحدّق بي متفحّصا:

ـ ماري هل أنتِ بخير؟!

هززت رأسي بالإيجاب:

ـ نعم في أفضل حال.

ـ لمَ كل هذا التغير؟!

ـ أريد أن أنغمس في الحياة.. أريد النّسيان.. المرح.. المغامرة.. اللّعب.. ممارسة الحبّ...

ـ كل هذا تفكير إيجابي، ومن دوري أن أشجعك حتّى تعود ماري السّاحرة.

وقام من مقعدة ومثل الراقصين انحنى لي، ومدّ يده فشبكت يدي به وقمت معه نحو طاولة اللّعب.. جلسنا وفرق الورق، وقبل أن نبدأ قال لي: اسم اللّعبة في الأصل مأخوذ من الألمانية «Pochen» أي ضرب، ثم بدأ في شرح كيف تتم اللعبة، أخبرني أن كل لاعب يمسك في يد واحدة خمس أوراق وفق ترتيب مشترك، واللاعب الذي يحصل على أعلى يد في الترتيب يكسب الجولة.. وشرح لي آلية اللعب حيث يوجد أربعة خيارات وهم: المجاوبة «Call».. الزيادة «Raise».. الانسحاب «Fold».. الفحص «Check»..

ويبدأ اللعب أولا بإظهار ثلاث كروت وتسمى «Flob» لتبدأ المراهنات عليها ثمّ ننتقل إلى مرحلة «Turn» التي يكشف فيها كارت واحد، وأخيرًا ننتقل إلى آخر مرحلة وهي «River» وكل مرحلة هي عبارة عن مرحلة جديدة من المراهنات، ويتاح لكل لاعب أحد الخيارات الأربعة السابقة، ويحدّد الفائز بآخر مرحلة، حيث يقوم اللاعبون بكشف أوراقهم لتحديد الفائز.

لعبنا وشربنا وخسرت كثيرًا وربحت قليلا، ولكنّي كنت سعيدة ومنتشية ولا أريد أن ينتهي الأمر أبدًا.

في النهاية اصطحبني إدوارد إلى غرفتي في الفندق. فتح الباب وتقدم بي نحو الداخل ثمّ وضعني في السّرير.. خلع حذائي ونمت.

إدوارد

خدر اللذة

العاشرة مساءً

كانت ثملة جدًّا، لا تشعر بأيّ شيء حولها.. أوصلتها إلى غرفتها ومددتها على السّرير.. بدت جميلة بوجهها الملائكي.. أغمضت عينيها ونامت.. أتيت بكرسي وجلست بجوارها أتأمل ملامحها الهادئة.. منذ زمن طويل لم تشعر بالهدوء ولم تعرف هذه السّكينة في النوم.

أنا الآن قريب جدًّا منكِ. أتناول يدها وأضعها في راحة يدي. قلبي يحبّك أيتها الحمقاء.. لماذا لا تشعرين بنبضه؟! قمت وتمددت بجوارها ووضعت يدها على قلبي.. أتشعرين بخفقانه، إنّه يدبدب بكل عنفوانه كلّما شاهدكِ. أنا سعيد لأنّني أقضي معكِ الأيام والساعات.. أنا سعيد لأنّني أتسبّب في منحك بعض الفرح المفقود.. أنا سعيد لأنّي بجوارك. أنحني عليها وأطبع

قبلة على خدها الأيمن ثمّ الأيسر.. والآن شفتاك أستطيع تقبيلهما.. مررت لساني على شفتيها بالتدريج ثمّ طبعت قبلة خفيفة.. تسلّلت يدي إلى صدرها الشّهي وأخرجت الأيمن والأيسر، ثم تناوبت على وضعهما في فمي أمتص من خلالهما بعضا من روحها العطرة..

خلعت ثيابي ورفعت عنها ملابسها وأنار لي ما بين فخذيها الطريق، إنّه آية في الجمال تفنن الرّب في صنعه، لعقت عسله بشفتي حتّى شبعت.. نمت فوقها وتأرجحت إلى الأمام والخلف داخلها، حتى أوشكت على إخراج كل متعتي التي رميتها على جسدها من الخارج، ثم بمنديلي المبلل مسحته وأزلت أثره.. ارتديت ملابسي وعدلت ثيابها وتركت المكان مذهولا.

عدت إلى غرفتي، ارتميت في سريري بقلب منتشٍ بالسّعادة والفرح.. لقد لمست كل جزء في جسدها وقذفت مائي عليها، أنا الآن لو متّ سأكون سعيدًا لا يوجد لديّ أقصى من هذا الحلم.. ولن أطلب بعد اليوم أي شيء من الرب.. لكن يوجعني أنني خسرتها للأبد..

خسارة أخرج منها منتصرا انتصارا زائفا ولكنه مريح.. كفاني انتظارا مملا بائسا، لم أجن منه إلا الوجع وكسر الروح.

طرق الباب فقمت.. كان الخادم، أخبرني بأنّ أحدهم بانتظاري في الأسفل فقلت له:

ـ سأنزل فورًا

ابتسم لي بمجرد رؤيتي وقام من مقعدة يمدّ يده إليّ، فتلقيتها بترحاب شديد وقلت له بعد أن جلسنا:

ـ كنت سأتصل بك غدًا.

ـ وها أنا قد أتيت لك..

وقلت مخمنا:

ـ أشعر أنّك تحمل لي أخبار سارة.

ـ نعم.. لقد وافق المجلس على مشروعك وسيموله بشكل كامل.

ـ هذا عظيم.

لكن لديهم بعض التّخوفات من فكرة أن ديفيد هو أول من بحث عن تلك المدينة الغارقة.

ـ هذه حقيقة وحدث بالفعل.. ولكن ديفيد لم يصل إلى أيّ شيء والجميع يعلم ذلك.. وليس من المنطق أن نظل ننتظر ديفيد.

ـ إذن لن تكون هناك أيّ مشكلة مع ديفيد.

ـ بالتّأكيد.. ديفيد يتفهّم ذلك جيدًا ونحن لن نبخس حقّه أبدًا.

ـ كم أنت رجل رائع مستر إدوارد، وصداقتك لديفيد تثير إعجابي دائما.. أنت نموذج للصديق المخلص.

ـ هذا ما تربّيت عليه.

ـ إذن سأرحل أنا الآن، نظرا لأنّني أودّ النوم قبل عودتي إلى القاهرة صباح الغد، ومعذرة لو كنت

أزعجتك في هذا الوقت المتأخّر.

- على الإطلاق.. لا يوجد أيّ إزعاج.

ودعت نائب هيئة الآثار، مبعوث السعادة الحقيقي.. إنّه يوم لن ينسى من ذاكرتي، لقد تحقّق لي حلمان كنت أهيم بهما طوال عمري.

صعدت إلى غرفتي، أبدلت ملابسي وغادرت الفندق، فلم يكن أمامي وقت كثير، وتحقيق الحلم يجب أن أستعد له بالعثور على ما بحثت عنه مرارا وتكرارا، والآن يجب أن أفوز به بأيّ ثمن.

ساحر الكتب

ديفيد

غير متوقع

الجمعة.. الثّانية عشرة ظهرًا

لم تصدّق زوجتي نفسها عندما سمعت صوتي عبر الهاتف وأنا أحدّثها من فيللتنا في الإسكندريّة.. أخبرتها بأن تأتي فورا، ففي غضون دقائق سيكون المنزل في أمان تام.

جال عبيد في أرجاء المنزل يمارس لعبته في اصطياد الأفعى، وبعد قليل كان قد أمسكها بين يده وراح يتفحّصها مليًا، ثمّ نظر إلي في ريب وقال:

ـ خواجة.. هل أنت على خلاف مع مستر إدوارد

نظرت نحوه بدهشة وأجبت:

ـ إطلاقا.. لكن لماذا تقول ذلك

ـ لا أعرف كيف أقول لك ما حدث؟!

ـ تكلم يا عبيد ماذا هناك

ـ هذه الأفعى وضعها لك أحدهم بهدف إخافتك

ـ من تقصد

ـ لقد أتى لي مستر إدوارد عندما كان في زيارته إلى الأقصر، من أجل عمل ما، وطلب منّي أفعى بلا أنياب.. قال إنه يريد الاحتفاظ بها.. وأنا من أعطى له هذه الأفعى وأعطاني مقابل ذلك جنيهًا.

ـ هل أنت متأكّد من ذلك

أجاب وهو منكس الرأس:

ـ مع الأسف

قلت غير مصدق:

ـ ولماذا يفعل إدوارد ذلك؟ إنّه صديق عمري!

ـ لا أعرف.. ربما حدث خلاف بينكما

ـ إطلاقا.

ـ الأمر محير..

ـ يجب أن أعرف الدّافع وراء ذلك.

ـ المواجهة هي الحلّ.

رددت وأنا أومئ برأسي:

ـ نعم هي الحلّ.

ـ وردم فجوات الماضي هو أهمّ شيء.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ ماذا لو كان بالإمكان وضعه أمامك

ـ من

ـ الرّجل الّذي دمر حياتك.

ـ من تقصد.

ـ إدوارد...

قلت في دهشة:

ـ لكنه لم يدمر حياتي!

ـ أنت ما زلت على طيبتك

ـ لكنه لم يفعل شيئا

ـ لقد فعل الكثير.. وبمَ تفسر الذي حدث لك في الماضي، ومن كان المستفيد، ومَن الآن وضع لك الأفعى للتخلص منك مرة أخرى.. أستطيع أن أخلّصك منه إن أردت..

ـ لا... لا أريد أن تحلّ الأمور هكذا.

ـ كنت فقط أريد أن أخدم.

ـ شكرًا لك.

أخرجت جنيهًا من جيبي وقدّمته له، فتقبّله باسما وهو يقول:

ـ لم أفعل شيء يستحق ّكلّ ذلك.. أنت خيرك عليّ يا خواجة.

ـ أتمنّى أن أراك مرّة أخرى.

ـ عندما تحتاجني ستعرف كيف تجدني.

ـ إلى اللّقاء.

ـ مع السّلامة يا خواجة.

رحل عبيد تاركا داخلي فجوات من الشّكّ والحيرة.. إنه يرمي إلى أن إدوارد هو السّبب الرئيسي خلف كل ما حدث لي؟! التفكير في مثل تلك الأمور مدمر لكل شيء.. اللّعنة.

انتبهت إلى صوت المفتاح في الباب.. دخلت ماري وهي تجري نحوي كطفل ناجٍ من تحت الأنقاض..

قمت وأنا أفتح لها ذراعيّ.. ارتمت في حضني.

ـ كنت سأجن لو غبت عني أكثر من ذلك.

ـ الحياة دونك غير ممكنة.

طبعت قبلة على شفتيها.. جذبتها من يدها وصعدنا إلى غرفتنا.

أمسكت بها من خصرها وجذبتها إليّ.. ألصقت فمي وجسمي بفمها وجسمها، خلعت عنها ملابسها وخلعت عنّي ملابسي، احتضنتني بقوة، قبّلت كلّ شطر في جسدي بنهم، قبلت كل شبر في جسدها بحرص وشهوة.

منحتني جسدها كما لم تفعل من قبل، وعندما أوشكت على بلوغ النّشوة، غرزت لساني داخل فمها.. قبلتها وانتشيت.

ديفيد

المواجهة

السّبت... الثّانية ظهرًا

ذهبت إلى إدوارد في الفندق الذي يقيم فيه، وأخبرني موظّف الاستقبال بأنّه في غرفته، فطلبت منه أخباره بحضوري. طلب إدوارد أن أصعد له، كونه متعبا ولا يستطيع النّزول.

فتح لي باب الغرفة بمجرّد أن طرقته، واستقبلني بترحاب شديد، ولكنّي لم أتجاوب معه، فتغيّرت تعابير وجهه وقال مستفسرا:

ـ ما بك

لم أرد عليه وتركته ودخلت. اتجهت نحو البار وصببت كأسا. رشفت منه رشفه ثمّ جلست حول الطّاولة والكأس بين قبضتي بينما عين إدوارد تتبعني في صمت.

ـ لماذا

ـ ماذا بك يا ديفيد

ـ أجب على سؤالي

ـ ما هو؟!

ـ لماذا

ـ لا أفهم ماذا تقصد!

ـ حقا! حتّى عبيد لا يفهم هو أيضا، ولا يعرف لماذا؟!

أصابه الذهول عندما ذكرت عبيد وأجاب بتوتّر:

ـ من عبيد هذا؟!

ـ عبيد صائد الأفاعي والثعابين، هل نسيته بهذه السرعة؟!

ـ لا أعرف عمن تتكلم.

ـ عبيد الذي كان يعمل معنا عندما كنا ننقب عن الآثار...أتذكر؟

- ....

ـ عندما تعرضت للحادث وسرقت منّي البرديات وتحطم مستقبلي.. وتوقفت حياتي تماما.. لماذا فعلت ذلك

ـ أنا لم أعتد عليك صدقني.. عبيد هو من فعل بك هذا.

ـ كل الخونة يجيدون الكذب.

ـ أنا لا أكذب ولم أكذب عليك قط.

ـ لكنك أنت من أتى بالأفعى ووضعها في بيتي.. لماذا

ـ لن أراوغ.. بالفعل أنا اشتريت أفعى من عبيد عندما كنت في زيارة إلى الأقصر، ولكن سرقت منّي في القطار في أثناء رحلة العودة ولا أعرف مصيرها.

ـ هل هذا كل ما حدث

ـ نعم..

ـ ومن الذي اعتدى عليّ وأفقدني الذاكرة ودمر حياتي

ـ بكل تأكيد لست أنا..

ـ ولماذا تجيب بكل هذه الثقة؟!

ـ لأنّني أقول الحقيقة.

وجلس بالمقابل لي وتابع:

ـ أنا لم أفعل بك أيّ شيء سيئ يا صديقي.

ـ والمدينة الغارقة

قال في استنكار:

ـ ما بها؟!

ـ ألم تحلم بها؟ ألم تحلم بأن تكون أنت مكتشفها

ـ نعم حلمت لأنّني أنا الأحق بهذا الاكتشاف.. أنا من نبّهك إليها قديما.. هل نسيت

ـ لم أنسَ ولكن أنا من عملت على إيجاد مكانها، وصرفت كل ما أملك من مال وعمر من أجل تحديد مكانها الصحيح، فإذن أنا الأحق.

أشاح بنظره، وزمّ شفتيه. تركت مكاني بوجهي الممتعض وحين اقتربت من الباب سمعته يقول:

ـ لقد أخذت منّي الكثير والكثير وأنا لم أنل شيئا.

رمزي

ما ترتب على الخسارة

الرّابعة عصرًا

حياتي الماجنة هي ملك لي أنا فقط، ولا أحد يستطيع أن ينحني عنها..

بالتّأكيد لا أقصد ما بدر إلى ذهنك، لكنّه هو تماما ما بدر إلى ذهن والدي خميس أفندي الموظف على الدرجة السادسة، الذي يعمل ليل نهار من أجل أن يوفر لي ولإخوتي ما يكفي لنعيش ونتعلم.. أنهيت شهادة البكالوريا وباجتهادي حصلت على بعثة لاستكمال دراستي في إنجلترا.. سحرتني مدينة الضباب وتهت في دهاليزها، وخطفتني نساؤها الساحرات.. نسيت كل شيء حتّى تمّ فصلي لكثرة تغيبي وإهمالي. نقص المال كان مشكلتي الوحيدة، حاولت حلّه بالعمل ولكنّي لم أكن أوفق في أيّ وظيفة، حتّى ضاقت بي

الحال فجمعت مبلغا بسيطا يكفي للعودة على متن سفينة ستخرج من ميناء ليفربول.

لازمت غرفتي في اليوم الأول، حتّى وجدت أحدهم يطرق بابي.. كان أحد الخدم من طاقم التنظيف، وقد أتوا للقيام بعملهم.. كنت في حيرة فقلت له:

ـ هل توجد أيّ وسائل ترفيهية هنا؟

ـ في الطابق الأسفل ستجد كلّ ما تحلم به.

تركت له الغرفة وهبطت بحثا عن وقت ممتع.

صالة ضخمة تضم العديد من البشر، يمرحون ويشربون ويرقصون ويلعبون البوكر. طلبت كأسا وسألت النّادل كيف يمكن أن أنضم لطاولة اللّعب، أخبرني بأن أنتظر قليلا وسيحجز مقعدًا لي، وبالفعل بعد نفاد ربع ساعة كنت أجلس مع مجموعة من الإنجليز والأمريكان أشاركهم اللّعب. الحظّ كان معي فربحت كثيرًا، ولكن عندما أتى ذلك الإنجليزي الأصلع تبدّد الحظ تماما ووجدت نفسي أخسر كل ما كسبت،

ثمّ كل ما معي.. لعبت على ما ليس معي فخسرت أيضا، لم أكن أعرف كيف أتصرّف فقد أصبحت مدينا بمبلغ ضخم، لا قدرة لي على سداده.. عندما شعر الأصلع بذلك أشار إلى طاقم الأمن فأتوا وقبضوا عليّ. ساقوني إلى جناح القبطان، وهناك اقترح القبطان أن أوقع كمبيالات بالمبلغ الذي خسرته.. كان أفضل الحلول أمامي فوافقت وأنا لا أعرف كيف سأوفي بهذا الدين. الإنجليزيّ الأصلع كان مرحّبا جدّا بقراري.. تمّ إعطائي عشرة كمبيالات لإمضائها على بياض، وقبل أن أوقع على أول ورقة سألني مستفسرًا:

ـ هل تجيد السباحة

ابتلعت السّؤال بصعوبة ونظرت نحو القبطان فقال متدخلا:

ـ ماذا تنوي أن تفعل مستر إدوارد

ـ السّؤال عابر سيدي القبطان لا أقصد منه أيّ شيء.. فقط هناك وظيفة لمدرب سباحة بمبلغ جيّد، كنت

أتساءل لو بإمكان مستر رمزي قبولها لكي تساعده على سداد ما عليه، فأنا أريد أن أضمن نقودي.

ـ يا لك من رجل نبيل مستر إدوارد.

وكرّر عليّ سؤاله:

ـ هل تجيد السّباحة

ـ بكل تأكيد.. أنا سباح ماهر.

ـ عظيم.. إذن وقع على باقي الأوراق ثمّ تعال معي لأشرح لك تفاصيل العمل.

اصطحبني إلى غرفته وهناك أخبرني بخطته الحمقاء.

ـ مستحيل أن أفعل ذلك.

ـ كل ما أريده هو تغيبه عن البيت ليومين فقط، وأنا سأدبّر كل شيء خلالهما..

ـ أنت تطلب ما لا طاقة لي به.

ـ قلت إنّك تجيد السباحة.. وهذا أهمّ شيء في المهمة كلّها.

ـ مستر إدوارد.. اسمح لي بالانصراف.

وقبل أن أغادر قال لي:

ـ فكر جيّدًا، ولا داعي للتسرع.. إنّ الحياة تفتح ذراعيها لك لا تردها... فقط احتضنها وقبلها وضاجعها إن شئت.. مثل تلك الفرص لا تحدث كثيرًا في حياة كل إنسان.

ثمّ قال محذّرًا:

ـ كل كلمة قيلت هنا إذا علم أحد بها، ستدفع ثمنها حياتك وحياة كل عائلتك.

ـ لا تخف هذا لن يحدث ليس خوفا على نفسي أو عائلتي، بل لأنّني أجبن من فعل ذلك.

ـ إذن فكر جيدا كيف ستسدد ديونك.

قبل الوصول إلى ميناء الإسكندرية بيومين ذهبت إلى الملعون الأصلع مستر إدوارد، كان يجلس إلى طاولة على سطح السفينة وظهره للبحر يتناول الطعام. اقتربت منه في تردّد حتّى وقفت أمامه أحدّق به. انتبه إليّ رافعا رأسه نحوي ثم ابتسم ابتسامة ساخرة، فرددت عليها بوجه ممتعّض.. قال لي:

ـ اجلس.. لقد أتيت في وقتك.

جلست وأشار للنّادل فأتى على الفور، وأخبره:

ـ مستر رمزي سيتناول الغداء معي.. هل هذا ممكن؟

رد عليه في استغراب:

ـ بكلّ تأكيد سيّدي.

ـ إذن ائت له بنصيبه.

وانحنى النّادل في ترحاب وغادر لينفذ ما أمر به.. رفع إدوارد كأسه وهو يحدق بي، وارتشف منها رشفة ثم

وضعها على الطاولة وقال:

ـ يبدو أنّك أنهكت من التفكير.

ـ بالفعل لم أنم ولم يهدأ رأسي ولو للحظة واحدة.

ـ رمزي.. هذه الحياة لم تخلق للبسطاء ولا الطيبين.. وإذا أردت أن تكون شيئا فعليك أن تفعل شيئا بنفس القيمة، وكلما كانت القيمة غالية كان جزاؤك أكثر سخاء.

لم أجد ما أقوله فنظرت إلى البحر.. وقال لي:

ـ البحر مثلا.. لا يرحم من لا يجيد العوم.. ويقف احتراما لأيّ سباح ماهر.

ـ لكنّه يغدر بنا في اللّحظة التي يشعر فيها بضعفنا.

ـ هكذا هي الحياة.. لذلك عليك مواجهتها ولكمها جيّدًا، حتّى لا تعطي لها الفرصة للقضاء عليك.

- سأفعل كل ما طلبته منّي، ولكن أريد أن أعرف المقابل.

- الكمبيالات بالنّسبة لي غير كافية.. سأضيف عليها ألفا من الجنيهات.

لمعت عيناي من سماع الرقم وقلت مبتسما:

- عظيم.. إذن اتفقنا.

أفقت من شرودي على صوت رنين الهاتف.. كنت أجلس في بهو الفندق وأتى الخادم وأخبرني بأنّ المكالمة من أجلي. لم أندهش فأنا أعرف المتّصل، لا أحد يعرف بوجودي هنا غيره. لطالما انتظرت تلك المكالمة الهاتفية. وضعت السّماعة على أذني وقلت بشكل مباشر:

- مرحبا مستر إدوارد.. كنت في انتظارك.. كيف الحال

- اسمعني جيدا أيها الوغد، يجب أن تستقل أول قطار متّجه إلى الإسكندرية وتأتي فورًا... هناك مصيبة

حدثت.

ـ ماذا حدث؟!

ـ عندما تأتي ستعرف كل شيء.

وأغلق الخط.. ووضعت أنا أيضا السّماعة. شرد ذهني وتكوّنت سحابات سوداء فوق رأسي.. صوت إدوارد لم يكن جيّدا ولا يطمئن أبدا، وسألت نفسي في قلق: ماذا حدث؟! هل كشف أمرنا؟!

يا إلهي.. يجب أن أتوقّف عن التّفكير فورا.

ـ ما بك يا رمزي؟

انتبهت لصوت فريد بك كمال عندما عدت إلى مجلسي.. كان يجلس بالقرب منّي فقلت:

ـ لا شيء.. فقط بعض الأخبار المزعجة.

ـ ما هي

تردّدت قليلا ولم أعرف ماذا أقول، وبان على ملامحي عدم الرغبة في البوح، فاستدرك فريد قائلا:

ـ كل شيء سيكون على ما يرام.. لا تقلق.

ابتسمت وأنا أهزّ رأسي ثمّ استأذنت في الانصراف.

صعدت إلى غرفتي. جهزت حقيبة سفري وتحسّست جيبي، فوجدت به ما يكفي لتلك الرّحلة المفاجئة.

نزلت إلى موظّف الاستقبال وطلبت منه إنهاء إقامتي، وهو بدوره أخبرني بأن فريد بك متحمل كل المصاريف.. شعرت بالرّاحة، لم أكن أعرف ماذا سأفعل لو لم يكن فريد أخبرهم بتحمله لكل نفقاتي، فأنا بحاجة لكل مليم في تلك الظروف التي أمر بها.. وضع أحدهم يده على كتفي ففزعت.

ـ لا تخف يا رمزي، هذا أنا.

ـ عذرا فريد بك، أنا متوتّر قليلا.

- لا عليك، ولكن إلى أين أنت ذاهب

- إلى الإسكندرية، لديّ هناك بعض الأعمال وسأقابل صديقا عاد لتوّه من لندن

- حقّا!! إذن أتمنّى لك رحلة سعيدة، وعندما تعود أخبرني، فأنا بحاجة لمساعدتك في أمر ما.

- بكل تأكيد.

ودعته وانطلقت خارجا من الفندق، استقللت حنطورا أوصلني إلى محطة القطار، ومنها ركبت أول قطار متجه إلى الإسكندريّة.

جلست في مقعدي، وعقلي لا يكف عن التفكير ورسم السيناريوهات ذات النهايات المرعبة. أخرجت سيجارة كنت قد لففتها وأنا في الفندق، أشعلتها ومع سحاب دخانها واصلت التذكر.

قبل أن تتوقف السفينة وجدت إدوارد يدق باب غرفتي.. دلف إلى الداخل في حماس.

- لقد حانت لحظة الحسم.

قلتُ في استسلام:

- وأنا مستعد.

وأخرج ورقة من معطفه وقدمها لي قائلا:

- بها كل شيء.. العنوان ومواصفاته ومكان منزله وشكل قاربه، وكل شيء تريد معرفته.

- ....

- لا تقف صامتا هكذا.. الحياة فرص ويجب استغلالها بشكل صحيح.

- ولو مات...

- سأحزن جدًّا لأنّه في النّهاية صديقي المفضل، لكن في الوقت نفسه سأزيد أجرك، وسيكون معروفا كبيرا سأحتفظ به لك طوال حياتي.

ـ ولو فشلت المهمة...

ـ لا يجب أن تضع هذا الاحتمال في بالك.. حدوثه يعني نهايتك فورا قبل أن تعترف لهم بأيّ شيء عنّي.

ـ أنت ترعبني.

ـ أنا أيقظ بداخلك التحدي

في الميناء الغربي رست السفينة. الجو ملبد بالغيوم ويوحي بشتاء وعواصف. بعد يومين كان موعد التنفيذ.. وتنفيذ الخطّة شيء بسيط على الورق، ولكن على أرض الواقع كلّ شيء في غاية الصّعوبة. تركت الفندق الذي نزلت به متجها إلى فيلا مستر ديفيد كاميرون، ورحت أترقب وضع البيت عبر النظارة المقربة عن بعد. ظللت قرابة الأربع ساعات إلى أنّ ظهر ديفيد وهو يحمل معدّات الصيد ويدفع القارب لداخل البحر.. ظللت أنتظر حتى انتهى من الصيد وقرّر العودة، ولا أستطيع أن أنكر أن الطقس منحني فرصة رائعة لإنهاء الأمر كما يجب.. بمجرد اقترابه من

الشاطئ سبحت نحوه في هدوء وبحركة خاطفة ضربته بقطعة خشب على مؤخرة رأسه، في أثناء استعداده للهبوط من القارب، ثم ضربته ضربه أخرى بشكل خاطف فسقط على ظهره واصطدم رأسه بحافة القارب، وبدأت الدماء في السيلان.. جمعت أنفاسي اللاهثة وخرجت من البحر أجري.

أصدر القطار صفّارته منبّها للوصول.. نظرت حولي فلم أجد أيّ شخص.. لقد هبط الجميع ولم يتبق سواي.

إدوارد

منحدرات

الحادية عشرة مساءً

الحبّ نقطة ضعفنا جميعًا، وماري هي نقطة ضعفه الوحيدة، ونقطة ضعفي أنا أيضا للأسف الشديد.. لكن هي تحبّه ولا تحبّني ولن تحبني في يوم من الأيام.. لعنة الله عليه وعليها وعلى هذا الحظ السيئ الذي أوقعني في حبّها.. لا مفر، يجب الخلاص منه ولكن قبل ذلك يجب الحصول على الخرائط، ولا سبيل لذلك إلا بخطف ماري وإرغامه على إظهارها.

بعدما عدت من الأقصر بالأفعى التي أخذتها من عبيد، وتسلّلت إلى منزل ديفيد. كنت متأكّدا من وجود ماري في المستشفى بجوار زوجها. رغم ضيق الوقت على عودتها ـ إذعلمت من إحدى الممرّضات أنّ المبيت مع المرضى ممنوع ـ رحت أبحث عن الخرائط والبرديّات ولكنّي لم أجد شيئا.

فجأة انقطعت الكهرباء ففزعت، وأسرعت بالرحيل، ولكن قلت لنفسي يجب أن أنتهي من هذا الأمر فورًا.

وضعت الخطة على أنّه في حالة فشل رمزي في قتل ديفيد، أنتقل إلى المرحلة التالية وأضع لهما الأفعى لتدفعهما لترك المنزل عدّة ساعات، حينها أتسلّل إلى داخل البيت. ومع نجاح رمزي رأيت أن الخطّة البديلة يجب أن تنفّذ أيضًا، حتّى أتخلّص من وجود ماري في المنزل لأكبر فترة ممكنة، وفي الوقت الذي كانت فيه معي في الفندق، كنت أذهب باستمرار إلى هناك وأعود بكل خيبتي... أبحث كثيرا وأعيد البحث ولا فائدة.. لا شيء موجودا.. لقد تعبت وخاب أملي.

لم يتبق الكثير، فقد وعدت المسؤولين بأن اكتشافي العظيم سأعلن عنه في خلال شهر، والوقت ينزف بسرعة هائلة.. يجب أن أتحرك بشكل أكثر فاعلية، وإلّا أصبح اسمي في عداد المفقودين، حال كل المساكين الذين يمرّون على هذا الكوكب دون أن يتركوا بصمة أو أيّ شيء يتمّ ذكرهم به..

طرق الباب، كان رمزي بوجهه الشّاحب الممتلئ بالخوف، فأدخلته على الفور وأغلقت الباب.

ـ خير يا مستر إدوارد.. هل الأمر خطير؟!

ـ تفضل بالجلوس أولاً...

فجلس حول الطاولة ثمّ تابعت قائلا:

ـ ماذا تودّ أن تشرب

بتوتر:

ـ أيّ شيء..

أحضرت كأسين، قدمت إحداهما له وجلست بجواره.. تتبّعت بطرف عيني وأنا أرشف من كأسي ملامح رمزي الخائفة وكأسه تدور بين يديه، فقلت:

ـ الوقت لم يعد في صالحنا.

ـ بمعنى

ـ لقد عرف ديفيد كل شيء، وفرصتنا في الحصول على الخرائط والبرديّات تضاءلت جدًّا.

ـ هذا ليس شأني.

وضعت كأسي على سطح الطّاولة بقوة ورددت عليه بحدّه:

ـ بل شأنك.. لقد بدأنا هذا الأمر معا ويجب أن ننهيه معا.

ـ لقد انتهت مهمتي معك يوم أن أفقدت ديفيد وعيه.

ـ الجريمة لا تنتهي بانتهاء دور الفاعل.. هناك العقاب.

ـ ماذا تقصد

ـ لا شيء إلا أنّنا يجب أن ننهي هذا الأمر كما ينبغي.

ـ أنت تغرسني معك في الوحل.

ـ بل في النعيم.

ـ عن أيّ نعيم تتحدث ونحن لا نعرف ماذا سيكون ردّ فعل ديفيد، وكيف سينتقم منّا.

ـ ديفيد شخصية مسالمة ووديعة.. لا يحبّ المشكلات ولا خوض المعارك.

ـ اتق شر الحليم إذا غضب يا مستر إدوارد.

ـ لذلك يجب أن نتحرك بحذر.

طلبت من رمزي أن يبقى معي من أجل النظر في ما يجب علينا فعله.. اصطحبته إلى صالة القمار من أجل تبديد بعض الوقت، بما أن النوم قد طار ويبدو أنّه لن يعود قريبا.

عندما مررت على موظّف الاستقبال، أخبرني بأنّ ثمّة تلغرافا من أجلي قد وصل في الظهيرة، وكان ينتظر هبوطي إلى أسفل من أجل إعطائي، إياه بما أنّني كنت محذرا من أن يطرق بابي أحد باستثناء رمزي. أخذته منه وقرأته في عجالة.. كان من هيئة الآثار تطلب منّي

الخرائط الدّالة على مكان المدينة الغارقة، من أجل دراسة الأمر وتحديد الميزانية المطلوبة لذلك.

وضعت الخطاب في جيبي وقلت لرمزي ونحن نتوجّه إلى الكازينو:

ـ لم يعد لدينا متسع من وقت.. يجب أن أحصل على مبتغاي.

ـ ماذا سنفعل؟!

ـ ستعرف كل شيء في وقته.

الخرائط الدّالة على مكان المدينة الغارقة، من أجل دراسة الأمر وتحديد الميزانية المطلوبة لذلك.

وضعت الخطاب في جيبي وقلت لرمزي ونحن نتوجّه إلى الكازينو:

ـ لم يعد لدينا متسع من وقت.. يجب أن أحصل على مبتغاي.

ـ ماذا سنفعل؟!

ـ ستعرف كل شيء في وقته.

عبيد

سري الأليم

الأحد.. الواحدة ظهرًا

تركت ديفيد يصفي حسابه مع إدوارد، وأتمنّى أن يستمتع في ذلك، ورحلت أنا إلى القاهرة لمقابلة الشيخ رمضان، لأصفّي حسابي معه هو الآخر.

طرقت بابه مرات متتاليّة وأنا أزعق باسمه:

ـ شيخ رمضان.. شيخ رمضان

ولم أسمع أيّ استجابة إلّا بعد مضي ما لا يقل عن ربع ساعة.. فتح الباب وهو يتثاءب ويفرك عينيه اللتين تفحصني من خلالهما بصعوبة، فركها ثانية ثم قال بعدما اهتدى لي:

ـ أهلا يا عبيد.. ما الّذي أتى بك إلى هنا

ـ ألن تقول لي تفضّل بالدّخول أوّلا؟!

ـ معذرة يا أخي.. قدومك المفاجئ أربكني.

ـ لا عليك.. وأعتذر عن حضوري في هذا التّوقيت.

ـ أنت مرحّب بك في أيّ وقت، تفضّل تفضل

ـ شكرًا.. يبدو أن قدمك قد تحسنت.

رمقني بنظرة باردة ثم تحرك عائدا نحو الداخل.

إنّه صديق الطفولة.. انقطعت علاقتنا لفترة طويلة ثمّ عادت منذ شهرين.. كانت عودة خير وأتمنّى أن تكتمل إلى النهاية، وأن تسير الأمور على أفضل حال.

في مجلسه قعدنا، ودخّان البخور يتصاعد.. وضع براد الشّاي على الموقد ونظر نحوي متفحصا، فقلت:

ـ لقد تعبت حتّى وصلت إلى هنا.

ـ المهم أنّك وصلت بالسلامة.

صمت قليلا.. حدّق بي في شك وقال:

ـ ماذا هناك

ـ هل اتفاقنا لا يزال قائما

ـ بكل تأكيد، وهل تراني غدرت بك؟!

ـ لا، ولكن ليطمئّن قلبي.

ـ وهل أطمأن

ـ لن أعرف الطمأنينة إلّا عندما أمسك نصيبي في قبضة يدي.

ـ ستمسكه في اللّحظة المناسبة.

ـ متي

صبّ الشاي وقدمه لي وقال:

ـ عندما أنتهي من مهمتي الأخيرة في هذه المهنة

بعد ساعتين تركته ورحلت حتّى ألحق قطار العودة.

جلست على المقعد الخشبيّ ثمّ مددت ساقي فوق المقعد المقابل وأغمضت عيني. الطريق طويل وممّل ولم أستطع النوم من أصوات بعض الراكبين حولي. في داخلي سعادة كبيرة بما حل بديفيد. أخيرًا سأشفي غليلي منه ومن أفعاله القذرة التي لم يشغل باله بتنظيفها مطلقًا.

حدث ذلك في ليلة الثلاثاء، عندما شاهدت زينب حبيبتي تتسلّل إليه في خلوته، وبدافع من الغيرة والفضول اقتربت من المكان، لكنه كان مغلقا، ولم أستطع سماع أيّ شيء.. عقب ساعتين خرجت زينب وهي تتحسّس طريق عودتها في الظلام.

في اليوم التالي ذهبت إليها وقلت لها:

ـ متى سنتزوّج

ـ انس

ـ نعم!

ـ لا أريد الزواج بك، يجب أن تفهم ذلك، ويتحتم عليك التوقف عن ملاحقتي.

ـ أنا حبيبك.

ـ لست حبيبي، وأنا لم أحبّك قط.

ـ هل تحبّين ديفيد

قالت بارتباك:

ـ ليس شأنك.

ـ شأن من إذن؟

ـ لا أحد وصي عليّ، ومن فضلك غادر الآن.

وقلت غاضبا:

ـ كما تريدين ولكن ستندمين أشد الندم.

وبعد بيومين قرّرت التخلص من ديفيد ومن شرّه.. وبما أنّه كان يحبّ البقاء بمفرده كثيرًا استغليت ذلك، تسللت إلى صومعته، غافلته وضربته على رأسه بكل قوّتي ثمّ سرقت كل البرديّات والخرائط التي عثر عليها، حتى تبدو كأنّها محاولة سرقة.. وقد كان.. والمصيبة الكبرى تجسدت في رحيل زينب بعد الحادث ولم تعد.. ولم أعرف أيّ طريق لها.. تركت العمل ورحت أبحث عنها في كل مكان، لم أعثر إلا على اللّاشيء. راحت زينب وتركت قلبي موجوعا عليها.

استسلمت واعتزلت العمل في مواقع التّنقيب، وبقيت في كوخي الصغير أنتظر عودتها، لكنّها لا تعود ولا يبدو أنّها ستعود. طوال الوقت بداخلي هاجس أنّها ستطل عليّ وتهتف باسمي، وتطلب منّي المغفرة وأصفح عنها... آه لو تتحقّق تلك الأمنية، كنت سأتزوّجها على الفور وسأفعل أيّ شيء حتّى تكون سعيدة. لطالما قمت بالصلاة في جوف اللّيل وناجيت الله أن يعيدها ولكن الله لم يستجب.. قرأت القرآن

مرات عديدة، ودعوت ولم يستجب... سمعت من شيخ الجامع أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة، فرحت أصلي طوال اليوم، وأدعو الله وألح في الدعاء وهو لا يستجيب.. وأكرّر الأمر كل جمعة ثم الجمعة التي تليها والتي تليها إلى أن أصابني الزّهد واكتفيت...

استغرقت وقتا طويلا حتّى كنت في «عشتي» المبنية من القشّ والطين. عبرت نجوعا وترعا وريّاحات، ومرّرت بشقوق جبال وعره.. مشيت على قدمي حتّى استوت، وضربها الوجع.

بمجرّد دخولي هبّت رائحة المعسل التي استنشقتها باستمتاع. ارتميت على فراشي لأرتاح وتذكرت أنّني نسيت شيئا، عصرت رأسي بحثًا عمّا كنت أفكر به قبل وصولي، جاهدت قليلا حتّى تذكّرت.. أزحت الفراش الذي أنام عليه، وحفرت تحته بيدي حتّى أخرجت البرديات والخرائط التي سرقتها من ديفيد وقلت لنفسي:

- سيكون لهم ثمن كبير مع كنزي العظيم.

رمزي

حيلة

الثّالثة عصرًا

أرغمني إدوارد على الذهاب معه إلى بيت ديفيد.. لم يكن لدينا أيّ خطة واضحة، لكنّه كان يريد أن يعرف خطوة ديفيد التالية تجاهه، عن طريق الحديث معه.. طرقنا الباب.. خرجت لنا زوجته وهي ترحب بإدوارد الذي ابتسم وهمس لي:

ـ يبدو أنّه لم يقل لها شيئا...

دلفنا إلى داخل البيت وسأل إدوارد:

ـ أين ديفيد

ـ لقد خرج.. كلّ يوم يخرج في هذا الموعد.

ـ حقّا

ـ نعم.. ولا أعرف إلى أين يذهب!

ـ هل تشكّين في شيء

قالت بابتسامة ساخرة:

ـ لا.. ديفيد مخلص دائما لي.

قال إدوارد بخبث:

ـ أأنت متأكدة من ذلك؟

سألت وقد تلاشت مظاهر البهجة من ملامحها:

ـ ماذا تقصد؟!

ـ لا عليكِ...

ـ إدوارد هل تخفي عنّي شيئا.

وارتسم على طلعتها كل رموز القلق.. صمت إدوارد قليلا ثمّ قال متردّدًا:

- لقد شاهدته مرّة برفقة فتاة عندما زارني بالفندق.

وكأنّ الدّهشة المفزعة لم تكف للتّعبير على مساحة وجهها، فسقطت ماري فوق المقعد دون أن تنبس، فتابع إدوارد حديثه:

- لقد نصحته أكثر من مرّة بأن يتركها ولكنّه لم يصغ لي.

وسألت في سذاجة:

- هل هي جميلة

وأجاب إدوارد في مبالغة:

- جدا...

- وابتسامتها

- على وجهها طوال الوقت.

وراحت تبكي بحرقة.. حاول إدوارد التّخفيف عنها بعض الكلمات، لكنّها لم تستجب له إلّا عندما قال لها:

ـ ما رأيك في الذّهاب إليه ومواجهته

ـ هل هذا ممكن؟!

ـ نعم، أنا أعرف مكانه.

ـ وهل هذا تصرف سليم

يبدو أن الأمر انطلى عليها بسهولة بسبب تشوشها النفسي، وهنا تدخلت بالحديث:

ـ هذا هو أفضل تصرّف ممكن أن تفعله امرأة شريفة وعظيمة مثلك.

لم أكن أعرف تحديدا ما يرمي إليه إدوارد، ولكن أيّا كان سيكون مفيدا من أجل الحصول على هدفنا.

أريد أن أنتهي من هذه الورطة وأقبض النقود التي وعدني بها، وأمزّق الكمبيالات وأعود إلى أبي وأطلب

منه المغفرة وأبقى بجواره إلى الأبد.

ماري

سكاكين الخيانة

الثّالثة والرّبع عصرا...

هل دفعه ضجره الوحشيّ لاكتراء امرأة ليمارس معها الجنس؟!

لماذا لم يقل لي؟ ومتى عرفها؟ وهل حدث هذا من وقت قريب أم من سنوات طويلة؟ كيف سأواجهه؟

تتدافع الأسئلة في رأسي بصخب محزن يلكمني فأصاب بعجز تامّ عن التفكير.. آه يا قلبي المسكين، حب عمرك يخونك ويتمتع بالأخريات، يهمس لهن بكلمات الغرام ويقبلهن ويمارس معهن الحبّ. كنت أعتقد أنّه يفرغ طاقته عن طريق الاستمناء، لكن يبدو أنّني مغفلة، إنّه يدفع كل حبّه بداخلها هذه الملعونة.. ما هذا الوجع، قلبي يؤلمني، وأنفاسي أقتنصها بصعوبة.. أنا السّبب.. أنا من أوصلته إلى هذه الحالة..

كنت أمتنع عنه ولا أمارس الجنس معه.. طوال الوقت أعاني من الصداع والمزاج المتقلب الذي لا يسمح بفعل أيّ شيء إيجابي له، وفي النّهاية هو بشر.. الفتور الّذي مارسته معه هو السبب.. أنا السبب.. أنا السبب.. أنا حمقاء.. حمقاء..

تركت إدوارد وصديقه وصعدت أغير ملابسي. أرتقي بهدوء درجات السلم المتجلدة، خطواتي ثقيلة والصداع يضرب رأسي بلا رحمة. أتشبّث بالدرابزين، في محاولة يائسة لمواصلة الصعود نحو غرفتي.

آه يا قلبي.. ما هذا الألم الذي يعتريك.. أصبح الألم رفيقا لي في هذه الحياة، يلازمني كظلّي، فهو مثل الظلام الّذي يسبّبه جسم ما عندما يحجب الضوء من الوصول إلى سطح ما.. أتقدّم نحو خزانة ملابسي. أقف لا أعرف ما المناسب لارتدائه في هذه الظّروف، كل ما أملكه فساتين ورديه أو قرمزية وهذا غير ملائم.. أسخر من نفسي ومن طريقة تفكيري فهذا ليس وقته. أمدّ يدي وأسحب فستانا وأرتديه...

تجذبني صورتي في المرآة. أبدوا بلا ملامح وبلا طعم، خاوية من الروح، مثقّلة بالألم.

أضع الشّال على كتفي، وأسير نحو الخروج للخيبة العلقم.. تسمّرت في مكاني مغمضة العينين وسارت في جسدي رعشة، وأنا أتذكر يد إدوارد وهى تتحسّس جسدي النحيل، وشفتيه وهي تقبّل كل جزء فيه.. هكذا تخيّلت ما حدث عندما فتحت عيني على سقف غرفتي في الفندق. في هذا اليوم لم أتذكّر إلا أنّني لعبت القمار وشربت الخمر بكثرة.. هل أنا أيضا خائنة؟.. لا لست خائنة فملابسي كانت عليّ، ولا يوجد أيّ دليل على أن إدوارد لمسني.. ستظلّ مجرّد أوهام.. اللّعنة عليكِ وعلى حظك يا ماري.. الأمور تسير دائما عكس ما أرغب، ولا يوجد شيء تمنيته وتملكته.. كل شيء كان يطير سريعا مع الرياح.

أعود إليهما، كانا جالسين في انتظاري.. جمعت بيدي أطراف شالي وشدته على صدري وقلت:

ـ هيّا بنا.

ديفيد

سقط سهوًا

الرّابعة عصرًا

لفتتني أصوات المدينة، أصبحت على حافّة السّقوط في وادي العتمة، إنّني أنزلق إلى الهاوية.. ذكريات الماضي تحوم حولي وشكوك المستقبل تخيفني.

ظللت أسير بلا هدف معيّن.. أمرّ بين الناس مثل الغريب التائه في بلاد جديدة.. تمرّ الخيبة الأخيرة على ذاكرتي فأتألّم بلا رحمة..

أجد حانة صغيرة فأدلف إليها بحثا عن النّسيان المؤقت.. لكنّي لم أتوقع أنّني سوف أصطدم بها بعد كل هذا الغيّاب.

المكان فارغ لا يوجد به سوى شخصين.. اخترت طاولة في ركن خال.. خلعت معطفي وجلست.. طلبت كأسا من النّبيذ.. وضعه النّادل أمامي وهو يبتسم ثمّ

انصرف.. رشفت من الكأس على مهل كأنّني لا أريده أن ينتهي.

دخلت الحانة امرأة جميلة، ممشوقة القوام تتهادى في مشيتها، لها شعر طويل منسدل على كتفيها، وقالت للنّادل:

ـ أعطني كأسا.

صوتها غاية في الجمال.. تأملتها.. ترتدي فستانا مثيرًا يكشف كتفيها وينتهي فوق ركبتيها بشكل عفوي.. نظرت لي.. نظرت لها.. ابتسمت.. ابتسمت لها.. تركت مكانها ودنت منّي وقالت بدهشة:

ـ مستر ديفيد.

ـ من؟!

جذبت مقعدا وجلست بجواري.

ـ لم ترني مذ زمن طويل.. أكثر من 18 عاما أليس كذلك.

امتلأت عيناي بالدهشة:

ـ من أنتِ

ـ كنت أرتدي جلبابا ممزقا وطرحة عندما شاهدتني أول مرّة.

ـ من أنتِ

ـ أنا زينب يا مستر ديفيد.. زينب التي وقعت في غرامك.

ـ زينب خطيبة عبيد!

ـ تمام.. خطيبة عبيد التي هربت خوفا من الفضيحة.. سلّمت لك أعزّ ما تملكه أيّ فتاة شريفة.

قلتُ متجنبا الخوض في حديثها:

ـ وما الذي أتى بكِ إلى هنا

ـ لم يكن أمامي إلا أن أكون ساقطة.. الوظيفة الوحيدة التي تليق بعاشقة مسكينة مثلي.

ـ وما الذي دفعك لذلك؟

ـ بعد أن فقدت ذاكرتك أصابني الرعب مما سيحل بي بعدك.. أنت لن تتذكّرني وعبيد لم أكن أحبّه، كنت أحبّك أنت فقط، وحتى لو تزوجته كيف سأحل مشكلة عذريتي.. سافرت أنت إلى إنجلترا لاستكمال علاجك وبعدها تم ّفصلك من العمل.. فجأة لم يتبق لي غير الهرب.. أتيت إلى الإسكندرية بحثا عن عمل، ولكن كلّ الأبواب أوصدت أمامي، ولم أجد غير أن أربح من أنوثتي التي وهبني الله إياها.. ربحت الكثير من المال وخسرت الكثير.. صرت بلا روح، مجرد جسد يستمتع به الرجال.

ـ الحياة قاسية على الجميع.. حياتي لم تكن مثاليّة.. بعد فقدان ذاكرتي وطردي من العمل ماتت أختي

وزوجتي، ومكثت سنوات أعالج في مصحة نفسية

ـ وكيف حالك الآن

ـ تزوجت.

ـ حقّا

ـ لكن فرحة الزواج لم تدم طويلا.

ـ لماذا؟!

ـ عانت زوجتي من نوبات نفسية سيّئة عقب وفاة طفلنا.

ـ يا الله.. ليكن الله معك وييسر أمرك.

ـ شكرًا زينب.

ـ العفو.. سعيدة أنّني رأيتك بعد كل هذا الغياب.

ثمّ قامت وقبل أن ترحل قالت للنادل:

- الحساب عندي.

- شكرًا أنا لا أريد ذلك.

- غير ممكن، هذا مكاني وأنت ضيفي.

وقالت ساخرة:

- وعلى كل فقد دفعت لي الحساب زمانا.

أنهيت كأسي ورحلت.. كانت زينب قد رحلت برفقة أحد الرجال، تحاشيت النظر إليها. ولم أشعر بأيّ ذنب تجاهها، ليس لها أيّ مكان من الأصل في رفوف ذاكرتي، مجرّد نزوة عابرة فقط لا غير...

مررت بمحل بيع العصافير. اشتريت اثنين من الكناري من أجل ماري..

عدت إلى البيت لم أجدها.. علقت القفص مكان سابقه ثمّ رحت أبحث عنها في غرفتنا، لم أجدها.. غيابها غريب، لم تفعل هذا من قبل.

انطلقت بسيارتي أبحث عنها في كل الشوارع والأزقة القريبة.. لا آثر لها في أي مكان.. ذهبت إلى قسم البوليس وطلبت منهم مساعدتي في البحث عنها.. وأخبرني المأمور بأنه سيكثف البحث عنها، وطلب مني الهدوء وعدم القلق.. إنه لا يدرك ما تمر به ماري عندما تكون وحيدة.. لا أحد يدرك ما تعانيه هذه المسكينة البائسة.. عدت للبحث عنها حتى نال مني التعب، وعدت خائبا إلى المنزل علها تكون قد عادت، ولكنها لم تعد.

إدوارد

على عكس المتوقّع

الرابعة والنصف عصرًا

اصطحبت ماري معي إلى بيت قديم مهجور. دلفنا إلى الدّاخل بحذر، وبمجرد إشارتي لها بأنّه موجود في هذه الغرفة تحركت على الفور ولكنّي باغتها بضربة على مؤخرة رأسها بكعب مسدّسي، سقطت فوق الأرض مغشيًا عليها.. ارتمى رمزي عليها يجس نبضها، وارتسمت علامات الخوف عليه.. نظر لي في ريب وقال:

ـ أخشى أن يتفاقم الوضع وتموت.

ـ علينا أن نسير قدما، لم يعد هناك أيّ فرصة للتراجع.

لم أعد أهتم سوى باسمي ومجدي الشخصي فقط.. كفاني ضعفا أمامها..

ـ أنا لا أريد استكمال هذه اللّعبة معك.. إلى الآن لا أحد يعرف عنا شيئا، وبفعلتك هذه ستفضحنا.

قلت محذرًا:

ـ قلت لك أنت عالق هنا ولن ترحل أبدًا.

ـ لا سأرحل فورًا.

وقبل أن يفعل ذلك أشهرت مسدسي في وجهه فلم يعرني أيّ انتباه.

ـ رمزي ستظلّ معي.. أنا في حاجة إليك.

ـ أنت بحاجه لأن تعود إلى عقلك.. حلم الشهرة سيصيبك بالجنون وستدمرني معك.

ـ يجب أن تكمل معي ما بدأناه.

لم يبال وأعطاني ظهره وتحرّك نحو الخارج.. حذّرته مرّة أخرى:

- رمزي.. توقّف.

لم يبال.. لم يكن هناك أيّ خيّار آخر.. ضربته في مؤخرة رأسه فوقع على الأرض.. قام من مكانه واشتبك معي.. ظل يضربني بقوة في يدي حتى أسقط المسدس منها، ثم انهال لكما في وجهي حتى بدأت استسلم له، ولكن بحركة خاطفة ركلته بقدمي واندفعت كالطائر ألتقط مسدسي، وبدون تفكير أصابته في مؤخرة رأسه ليسقط قتيلا في الحال.. وقع المسدّس من يدي وجثوت على ركبتي أبكي.. لم أكن أعرف ما الذي ورطت نفسي به.. هذا حادث لم يتم التّرتيب له، لم أضعه في حسباني مطلقا.. تعقدت الدنيا وضاع كل شيء.

في سباق مع الزمن انطلقت نحو فندق سان ستيفانو.. بسرعة اجتزت الممرّ وصعدت إلى الدور العلويّ.. كنت ألهث.. صعدت درج الدور التالي ببطء.. أحسست بالعرق يتصبّب على جبيني وبت أسمع دقات قلبي المتلاحقة.

فتحت باب غرفتي وجلست على أول كرسي وجدته أمامي، أحاول البحث عن الهدوء. بعد قليل قمت وصببت كأسا تجرعتها على دفعتين، ورحت ألملم ملابسي وأشيائي المهمّة.

أنهيت ارتباطي بالمكان ودفعت فواتيري، وقبل الرحيل تركت خطابا مع موظف الاستقبال طلبت منه تسليمه إلى مستر ديفيد كاميرون.

الوقت ضيق، لم يتبقى إلا القليل على مغادرة السفينة للميناء. نقلتني عربة يجرها حصان إلى مرادي وفي موعد إبحار الباخرة كنت على متنها. شعرت بالراحة وبدا لي أن الأمور ستسير على ما يرام، ولكن ظلّ شيء يؤرقني.. لقد تركت ماري تواجه مصيرا أسود، وقد غدوت قاتلها الحقيقي المدمر تماما لها.. أنا أحبّها، وصدق من قال «ومن الحب ما قتل».. كل الظروف ضدي ولم يكن أمامي حل آخر غير الهروب وتركها فاقدة الوعي كالنذل، لتكتب الفصل الأخير في حياتها الصعبة.. أنا في النهاية مجرد إنسان ضعيف ولا أملك أيّ قدرة على تحدي قدري الذي كتبه الربّ لي.. كانت

خطّتي أن أرغم ديفيد على تسليمي الخرائط والبرديات، ومن ثمّة أتخلص مِنه وأبدأ في تحقيق حلمي الذي انتظرته طويلا، وأتزوج في النهاية ماري وأعيش سعيدًا إلى الأبد.. أوهام.. أوهام.. أوهام..

المأمور

لغز حلّه بسيط

السادسة مساءً

جاءنا بلاغ عن طريق مجهول، يخبرنا بأن هناك جريمة قتل في المنزل المهجور وسط المدينة.. في تلك الأثناء كان مستر ديفيد قد قدم بلاغ عن اختفاء زوجته ورحل ليستكمل البحث عنها، بينما أمرت الشّاويش سيد بجمع القوات، وفي الحال ذهبنا إلى هناك.

عند دخولي وجدت مدام ماري جالسة في أحد أركان الغرفة بلا حراك، وهي عارية من ملابسها والقتيل بجوارها عار أيضا.. مسدس الجريمة موضوع بجوارها.. اقتربت منها وأنا أخلع سترتي العسكريّة وأغطيها بها، ووضعت يدي عليها وأنا أهمس باسمها:

ـ مدام ماري.

انتفضت فزعة وراحت تصرخ بهسترية غريبة، فابتعدت عنها حتّى هدأت وطلبت من العساكر انتظاري بالخارج، ما عدا الشّاويش سيد.. جمعت قطع ملابسها المترامية بكلّ مكان ووضعتها أمامها، وطلبت منها أن ترتديها بينما سأنتظرها في الخارج.. لم تنظر لي ولم ترد علي.. خرجت ومعي الشّاويش سيد وانتظرنا في الخارج بعض الوقت في انتظار طلتها.. غابت كثيرًا، ودفعني القلق للدخول فوجدتها كما هي ساكنة في مكانها لم تتحرك ولم ترتد شيئا...

ـ مدام ماري.. أرجوكِ ارتدي ملابسك حتّى نرحل من هنا.

- ....

ـ مدام ماري.. يجب أن نرحل من هنا.

لا فائدة.. ظللنا على هذه الحال قرابة الساعتين، وماري كما هي لا تنبس بأيّ حرف.. لم يكن أمامي إلا

أن أطلب من الشّاويش سيد إحضار أيّ امرأة عابرة من الخارج لكي تساعدها على ارتداء ملابسها.

عقب نصف ساعة صارت ماري جاهزة للتّحرك.. وضعتها بجواري في السيارة وانطلقنا عائدين إلى نقطة البوليس...

تركت غرفة نومي لها حتّى تستريح فيها، فلم يكن مخوّلا لي وضعها في التّخشيبة. قبل ذلك قدمت لها الطعام لكنها رفضت تناوله.. حاولت الجلوس للتّحدث معها ولكنّها ظلّت صامتة كأبي الهول.

* * *

أفكار كثيرة دارت بذهني وأنا جالس خلف مكتبي، أحاول أن أفسر الأمر وأصل للحقيقة.. ما الذي دفع ماري لفعل هذه الجريمة البشعة؟ المؤشرات الأولى تقول إنّها كانت في وضع حميميّ مع هذا الشّاب، وإلّا لم كان هو وهي بلا ملابس؟! بحسب ما عندي فماري لا تخرج كثيرًا من منزلها وتعاني من مرض نفسيّ، سبب لها العديد من المشكلات، وغير معروف عنها

إدمان للخمر أو القمار.. الأمر حقّا محير.. ما دفعها لخيانة زوجها؟ وما دفعها لقتله؟ أيّ خلاف نشب بينهما تطوّر إلى هذا الوضع؟! هل اشتبك بها وضربها بعنف فسقطت على الأرض، ونزعت بحركة خاطفة المسدس من ملابسه التي خلعها وأطلقت عليه الرصاص؟! لكن الرّصاصة ضربت في رأسه من الخلف.. السّيناريو إذن الذي أفترضه غير محكم، وهناك أمر آخر.. ثمة أثر ضربة قويّة على مؤخرة رأسها.. إذن هذا هو التّفسير.. بعد أن ضاجعها حدثت بينهما مشادة، تطوّرت إلى ضربها على رأسها.. سقطت فوق الأرض مغشيا عليها ويبدو أنّها لم تفقد وعيها لفترة كبيرة، فسرعان ما أفاقت ووجدت المسدس في ملابسه فانتزعت وضربته دون أن ينتبه لها.. يبدو لي هذا هو التفسير المنطقي والأكثر واقعية.. لكن يظل مجرد تخمين لا أستطيع اعتباره أمرا واقعا.

فريد كمال

التّهاية

الاثنين.. التاسعة صباحًا

أخبرني الشيخ رمضان أبو عصران أن الوقت قد حان وأن دليل القمر أصبح واضحا له.. اتّفقت معه على الذهاب إلى المقبرة بسيّارتي ومعي رجالي، لكنه رفض وأصر أن نذهب بمفردنا، ومن باب الاحتياط أخذت طبنجتي معي.. في الموعد المحدد سلكنا طريقنا وكنت مندهشا من معرفته المكان بسهولة، فقد كان يدلني على الطّريق طوال الوقت.. أراد استعراض قوته ولا أنكر أنّه أثار في نفسي الإعجاب بقدراته، وأصبحت مؤمنا بأنّه رجل من رجال الله في الأرض، الذين يكشف لهم الغيب ليساعدوا عباده المخلصين أمثالي.. كان الاتفاق أن يعيد لي مقبرتي كما كانت سابقا بكل كنوزها.

توقفنا عند باب المقبرة ونزلنا من الأوتوموبيل وقال لي:

ـ بما أنّك دخلتها من قبل وتعرف جيدا كيف تهبط، ستنتظرني داخل المقبرة لمدّة خمس دقائق.

وقدّم لي زجاجة صغيرة وتابع قائلا:

ـ ستقوم بفتح هذه الزجاجة الصغيرة وتضع سائلها على قطعة الذهب التي معك، ثمّ تستنشق رائحتها جيّدًا.. وبعد ذلك تتمتم ببعض آيات من القرآن الكريم، وتحديدا سورة الإخلاص ثلاث مرات، وحينها سأدخل عليك ومعي المصباح لتتحقّق من كنزك المفقود.

ـ والمبلغ المتّفق عليه

ـ سآخذه عندما تتأكّد من أنّ كلّ شيء كامل، ويطمئن قلبك بأنّني لا أكذب عليك.

في الظّلام هبطت إلى الداخل بحذر، أتحسّس مواضع قدمي، محاولا عدم تذكّر التجربة التي خضتها هنا من قبل.

بعد مضي قرابة الخمس دقائق، نزعت السدادة من فوهة الزجاجة وسكبتها على سطح قطعة الذهب، فتصاعدت منها رائحة ليست بالغريبة عليّ وتذكرت:

- غير معقول أنّها نفس الرائحة التي كانت ستقضي علي.. لقد خدعني بن القحبة..

هممت بالصعود سريعا على الدّرج لكن قدمي توقّفت عند الخطوة الأولى، وما هي إلا لحظات قد بدأت أفقد إحساسي بكلّ ما حولي، عيناي لا تدركان شيئا، رأسي ثقيل، قدمي لا أشعر بها، يدي تتحرّك ببطء شديد، الخدر يستولي على جسمي تدريجيًّا.. حاولت الصّراخ لكني تراجعت وقلت لنفسي: من سينقذني؟!

وبعد قليل سقطت مكاني في ظلام كثيف.

ديفيد

الصّدمة

التّاسعة صباحًا

في الصّباح الباكر طرق الباب واستيقظ عقلي صارخا:

ـ ماري.. لقد عادت...

قمت في لهفة لاستقبالها.. تجمّدت ملامحي عندما طالعني عسكريّ قال لي بارتباك:

ـ صباح الخير.

قلت بتوجس:

ـ أفندم.

سأل بصوت أجش:

ـ معاليك مستر ديفيد

ـ نعم.

ـ حضرة المأمور يريد مقابلتك في الحال.

ـ بخصوص ماذا

ـ أمرني بإحضارك فقط.

تسارعت ضربات قلبي في خوف.

ـ هل ماري محتجزة لديكم؟ أو حدث لها مكروه

ـ ليس عندي شيء آخر أقوله لسيادتك.

استأذنته في الانتظار حتّى أغيّر ملابسي.. دقائق وكنت اصطحبه في سيارتي، وعندما بلغنا نقطة البوليس قادني إلى حجرة المأمور ثمّ أدّى التحية قائلا:

ـ مستر ديفيد يا فندم.

ثمّ انصرف.

كان الضابط جالسا إلى مكتبه، وماري جالسة فوق دكّة خشبية في ركن الغرفة بوجهها الشّاحب، خائفة تنتفض مثل الفأر المذعور.. اتجهت نحوها وأخذتها في حضني وقلت:

ـ لا تقلقي كلّ شيء سيكون على ما يرام.. أنا الآن بجوارك.

لم أفكّر في أيّ شيء إلا أنّها بخير وسوف تعود إلى المنزل.. جال بخاطري أنّها من الممكن أن تكون قد تعرضت لمضايقة من أحد فضربته، أو ما إلى ذلك.. أيّا كان السّبب سيحلّ. تركتها واتجهت نحو المأمور أستفسر منه عمّا حدث، فقال لي:

ـ مدام ماري متورطة في جريمة قتل.

ـ ماذا

كاد عقلي يتوقّف في تلك اللّحظة، وتابعت بذهول:

ـ غير معقول يا حضرة المأمور.. ماري لا تستطيع فعل أيّ شيء.

ـ هذا ما حدث.. لقد وجدناها في البيت المهجور في وسط المدينة وبجوارها الجثة ومسدس الجريمة.

ـ ومن القتيل؟!

ـ شاب يدعى رمزي.. طالب فاشل سافر منذ شهور إلى الخارج في بعثة من أجل استكمال تعليمه، لكنّه لم ينجح وعاد إلى الوطن.

ـ وما علاقة ماري بهذا الشاب

ـ هذا السؤال يجب أن تجيبني عنه أنت.. فقد وجدنا الجثة بلا ملابس وكذلك مدام ماري كانت عارية.

ـ هذا مستحيل.. ماري لم تخبرني أيّ شيء عن هذا الشخص، إضافة إلى أنّها لا تخرج أبدًا من المنزل بمفردها.

ـ يجب أن تثبت ذلك بشكل عمليّ.. كلّ الأدلّة ضدها.

ـ هل تريد أن تقول لي إن ماري تخونني

ـ أنا لم أقل ذلك، ولكن أقصّ عليك ما شاهدته بعيني.

ـ غير معقول.. غير معقول..

ـ مدام ماري لا تريد مساعدتنا، لم تقل حرفا واحدا كما ترى.

كان الأمر غريبا ومربكا ولم أبصر كيف أتصرّف.. من غير المقبول أن أصدّق أن ماري تخونني مع أيّ شخص في العالم، إنّها مخلصه لي دائما ولا يجب أن أنسى أن الجنس ليس من أولوياتها في السنوات الأخيرة، فكيف تلجأ إليه إذا كانت لم تطلبه من الأساس.. هناك حلقة مفقودة.

جلست بجوارها.. أمسكت يدها وأنا أرنو إلى وجهها بابتسامه وقلت:

ـ ماذا بكِ يا حبيبتي

لم ترد...

ـ أرجوكِ يجب أن تتحدّثي حتى تخرجي نفسك من هذا المأزق.

- ....

ـ أنا لا أصدّق أيّ شيء ممّا قاله المأمور.. إنّني أعرفك جيّدًا وأعرف كم أنت مخلصه لي ولحبّي.

التزمت الصّمت، رفضت كلّ المحاولات.. أوصلتني لمنطقة أجهل ما الّذي عليّ فعله فيها.

في الخارج لفحني هواء بارد أوجع قلبي وأثقل خطواتي، وظللت لفترة جالسا خلف عجلة القيّادة دون حركة، إلى أن استجمعت بعض قوّتي وانطلقت.

ذهبت إلى إدوارد في الفندق فلم أجده، أخبرني موظف الاستقبال بأنّه غادر الفندق وتقريبا رحل من

البلاد.. قرار إدوارد غريب ومفاجئ بالنسبة لي...

ـ ما اسم سيادتك

ـ أنا... ديفيد كاميرون

ـ لحظة واحدة من فضلك

وعبث ببعض الخطابات التي أمامه إلى أن استقر عند واحد.

ـ لقد ترك لك مستر إدوارد خطابا.

ـ لي أنا؟!

ـ أليس هذا هو عنوانك؟

وقدّم لي الخطاب وعليه عنواني، فتمتمت:

ـ نعم هو عنواني.

أخذت الخطاب ووضعته في جيب سترتي، وقبل العودة إلى المنزل مررت على أحد أكبر المحامين في

الإسكندرية، شرحت له الوضع وكتبت له شيكا مقبول الدفع بجزء من الأتعاب. أخبرني أن الوضع ليس هيّنا لكنّه سيبذل قصارى جهده في القضيّة.

عدت للبيت والتعب يقتلني والتفكير يدمّر آخر ما تبقى من يقيني في هذه الحياة.

جلست أفكّر في ما حل بي وبها، وتكوّن أمامي مصير مظلم نهايته مخيفة.. ركّزت تفكيري على اللاشيء حتّى أطرد الهواجس من رأسي، وقرّرت أخذ حمام ساخن.. الماء الدافئ يملأ البانيو، ممزوج بالصّابون والعطور، هو المفتاح الّذي يؤثّر على ارتخاء العضلات، ما يصيب الجسم بالاسترخاء للحصول على نوم هادئ ويساعد على التّقليل من التوتر.. مرّت نصف ساعة أحسست أنّني أفضل لكن التفكير في ماري لم يغب عني قط.

أحكمت ربط البرنس حول خصري وخرجت.. تذكرت خطاب إدوارد.. أمسكت سترتي وأخرجته من جيبها

ثمّ فضضت طرفه برفق وسحبت الورقة من داخل المظروف.. أفردتها وقرأت:

« عزيزي ديفيد..

ماتت أمّي صباح أمس واضطررت للسّفر فورا لحضور جنازتها.. كنت أودّ أن أكون بجوارك يا صديقي.. لا أعرف كيف أواسيك.. ولكن ما شاهدته وسمعته أذهلني.. كنت قادما إليك في ظهيرة هذا اليوم الشؤم ولم تكن في منزلك.. كنت أريد الاعتذار لك والاعتراف بكلّ أخطائي، ولكن عندما اقتربت من المنزل شاهدت ماري تسير على قدميها نحو سيارة متوقفة على مقربة من بيتك، أصابني الأمر بالشّكوك فتتبعتها وهي تركب السّيارة وتنطلق برفقه شاب إلى البيت المهجور.. دار بداخلي العديد من التساؤلات وتصورت أن هذا الوغد يبتزّ ماري ويدفعها للتورط في أمور إجرامية.. تسللت إلى داخل المنزل وسمعتهما وهو يهيمان ببعضهما عشقا ورأيتهما يتبادلان القبلات، ويخلعان ملابسهما في شوق وهياج.. لم أتحمل مشاهدة ذلك فغادرت المكان على الفور... ظللت

لساعات مذهولا لا أعرف ما يجب عليّ فعله إلى أن اتخذت قراري بإبلاغك، فلا أستطيع رؤية أعزّ صديق لي يخان وأصمت.. كن قويّا يا صديقي وواجهها بحكمة، واعرف الأسباب التي دفعتها لهذا الفعل المشين.. سأعود بمجرد انتهاء مراسم الدفن لأكون بجوارك ولن أتركك أبدا...

صديقك المخلص

إدوارد»

غير معقول.. عقلي سيقف.. رفقا بي أيّها المسيح.. هل هذا هو سبب تمنعها عنّي عند ممارسة الجنس.. غير معقول.. غير معقول..

سرت في الغرفة، أدور حول نفسي لا أعرف شيئا، أريد أن يتوقّف عقلي حتى أتخلص من غول التّفكير الملعون.

التقطت زجاجة نبيذ، صببت كأسا وشربتها، ولم أتوقّف عن الشّرب حتى رحت في النّوم.

رمضان أبو عصران

ملك الألاعيب والحيل

أنشر ألعابي فوق أحلامهم العالية، وأمدّ لهم حبال الوهم ليلتقطوا أطرافها لأجذبهم بسهولة نحو شباكي الملعونة.. وعندما يقع في شباكك من قتل أخاك، فيجب ألّا ترحمه إطلاقا.

منذ طفولتي وأنا أحب التلاعب بمصائر البشر.. أحبّ مشاهدة الرعب في عيونهم، والفرحة التي تزرعها بداخلهم بمجرد أن تقضي لهم حاجتهم، والخيبة عندما يدركوا أنّك نصبت عليهم.. تعلمت المهنة من صغري على يد عمّي حامد، ورغم الخصومة بينه وبين والدي فإنّني تمسكت بالعمل معه في الدجل أو النصب كما كان يقول أبي.. تعلمت منه الكثير، ورغم أن حيله بسيطة ومكشوفة في بعض الأحيان فإنّه ينفذّها بإتقان، يقتنع بها البسطاء والمغفّلون من أهل الصعيد.. لكنه مات سريعًا إثر مشادّة مع أحد ضحاياه ضربه بحجر على رأسه فسقط قتيلا.. وبرحيله أغلق هذا

الباب. ألحقني أبي بالعمل عند أحد الأكابر كخادم له، لكن الوظيفة لم ترق لي فقرّرت الهرب وذهبت إلى الموالد بحثا عن عمل. وجدت عملا بسيطا لتنظيف روث الحيوانات في السيرك المتجول.. لفت نظري من أول وهلة الساحر الهنديّ.. كان يحضر الأرواح بطريقة غريبة ومرعبة جعلت الكل يصاب بالخوف والانبهار، ذاع صيته بين النّاس وأصبحت فقراته أهمّ فقرة في البرنامج اليومي، الكل يأتي يشاهد ويتعلم.. في يوم كان بحاجه إلى طفل لمساعدته في تحضير روح الملك توت عنخ آمون فتقدّمت له.. تفحصني مليا بنظراته المخيفة ثمّ قال لي لو فعلتها ستكون مساعدا لي.. وكنت عند حسن ظنه وعلمني الكثير والكثير من أسرار عمله.. لقد اعتبرني طفله الصغير.

إلى أن أتى ذلك اليوم الذي طلبه فيه أحد الأعيان لتحضير روح أبيه الباشا من أجل أن يدلّه على الكنز.. اصطحبني معه واتّفق معي على طريقة العمل. أخبر البك أنّ عليه تحضير قطعة ذهب بقيمة خمسمئة جنيه، وسيستردّها في الحال عند ظهور الكنز.. لم

يتردّد البك ولو للحظة وقال له سمعًا وطاعة.

وفي اليوم المحدّد أعطاني الهندي زجاجه بها كميّة كبيرة من سائل غريب، وشرح لي طريقة عمله.. سكب القليل منه وأشعل النّار به وترك المكان فورًا، لأنّه عندما تنطفئ النّار يتحوّل دخّانه إلى غاز منوم. نزلت إلى السرداب وفعلت ما قاله لي الساحر وعندما صعدت قال الهندي للبك إنّ كل شيء أصبح جاهزًا وعليه النّزول إلى السّرداب من أجل الظّفر بالكنز. بمجرّد هبوط البك قال لي التقط قطعة الذهب وهيا بنا من هنا قبل أن يعود لنا ويقتلنا.

رحلنا إلى محافظة أخرى. في الطريق قال لي إنّه سيعود إلى بلده لأنّه كبر وتعب من الترحال، ويخشى الموت في هذه الأرض الغريبة، وحتّى لا يتمّ دفنه كما ينبغي بحرق جسده، وتعهد لي بأنّ يأخذني معه.

وفي صباح هذا اليوم الذي اتّفقنا فيه على الرّحيل وجدته قد فارق الحياة. شعرت بغصة في قلبي وانتابني حزن عميق، بكيت قليلا عليه وعلى نفسي، فقد صرت وحيدًا، ولكنّ سرعان ما تماسكت وفكّرت في الغد. أخذت زجاجة السّائل الغريب وقطعة الذّهب وبعض النقود التي كان يحتفظ بها وكلّ أدوات عمله، ثمّ أشعلت النّار في جثّته كما تمنى، ورحلت.

كنت محرومًا من أشياء عديدة فكافأت نفسي بالنّقود الّتي تركها الهندي، ولكن الله رزقني بأولاد الحرام سرقوا منّي الجنيهات وقطعة الذّهب، ولم يتبق معي إلا زجاجة الغاز وما تعلمته منه.. بدأت في العمل على تحضير الأرواح ولكنّي لم أكن ذكيا بما يكفي للإبهار، فلم أنل شهرة ولا يحزنون، إلى أن قابلني الخواجة ماركو وأخذني معه برفقة أخي وهدان، الّذي استطاع أن يكسب ودّ أنور بك كمال وعمل معه في نشاطه المشبوه.

في يوم ما جاء لي أخي وهدان وقال لي:

ـ لقد أتت فرصة عمرنا يا أخي

قلتُ في استنكار:

ـ أين هي؟!

ـ لقد توصّل أخيرًا أنور بك كمال إلى مقبرة ضخمة ممتلئة بالكنوز.

ـ حقا؟

ـ سنفتح المقبرة في الليلة الأولى من شهر هاتور.

ـ وماذا سنفعل

ـ لا بد من خطّة محكمة قبل أيّ شيء.

قلتُ والفرحة تكسو وجهي:

ـ ليس في ذهني أيّة أفكار.

ـ لقد جهزت كلّ شيء، ويتبقّى فقط مجرد التّنفيذ.

ـ ماذا سنحتاج

ـ أولّا نحن بحاجة إلى صديقنا عبيد ليساعدنا في نقل الكنز.

فكّرت قليلا ثمّ قلت:

ـ لم أره منذ زمن طويل.

ـ لكنك تعرف أراضيه.

ـ نعم.. ولكن لماذا لا نفعلها بمفردنا دون شريك

ـ أنت أكثر شخص تعلم قدرات عبيد، وكيف سيفيدنا لو انقلبت الأمور ضدنا.. تجاربنا السابقة معه تقول إنه لا غنى عنه في مثل تلك المهمات.

ـ إذن لا تقلق، سأعثر عليه.

ـ إذن هناك الأهمّ.

ـ ما هو

ـ الغاز الّذي تستخدمه في تخدير ضحاياك.

ـ ليس معي منه الكثير.

ـ أريد ما يكفي لتنويم شخص واحد.

ـ سيكفي أعتقد.

ـ تمام.

ـ ثمّ ماذا

ـ ليس هناك شيء آخر.

ـ هل هذا كلّ شيء؟

ـ سأوضح لك تفاصيل الخطة، ولكن عندما يأتي عبيد لأن دوره مهمّ جدًّا.

ذهبت إلى عبيد وطلبت منه مرافقتي حيث ينتظرني أخي وهدان.. اجتمع بنا أخي في منزلنا القديم وشرح لنا الخطة كاملة:

ـ بمجرد أن تفتح المقبرة سأقتل أنور كمال، حينها سأشير لكم عبر المصباح لتأتيا وتساعداني.

ـ ولماذا لا نقتله معا

ـ لقد أذاقني هذا الخنزير المرار والذّل، وأنا أريد أن أستمتع بموته بمفردي.

ـ وماذا بعد ذلك

ـ كالمعتاد أنور كمال يذهب إلى المقبرة بجمل، سنأخذه ونحمل عليه ما نستطيع.

ـ عظيم.

ـ عندما ننتهي سنعبّق المقبرة كلّها بالغاز، حتى إذا دخل أحد يسقط في النّوم، ولعله يموت ويختنق، وكما هو منتظر، فريد كمال سيذهب ومعه رجاله لمعرفة لماذا تأخّر أخوه، وزيادة في الاحتياط، سيضع عبيد أفعى علها تخلص عليهم جميعا، خاصة فريد الّذي يخاف من خياله ويعاني من الربو.

قلتُ في تردّد:

ـ ولو كُشف أمرنا.

ـ لن يستطيع ولن يشكّ في شيء.. عندما يتدارك فريد خدعتنا سنكون قد غادرنا البلد.. هذا على افتراض أنه سينجو.

وقلتُ في شك:

ـ ولماذا لا نقتل فريد أيضا ونتخلص منه مع أخيه

ـ الأمر ليس بهذه السهولة.. فريد كمال لديه العديد من الرجال يعملون معه، ربما لو انتظرنا لنقتله وكانوا بصحبته، سيخلصون علينا بدلا من أن نخلص عليهم.. لأنه من المنطقي أن غياب أخيه سيكون مثيرا للشك.

صمت وهدان قليلا ثم تابع:

ـ المهم أن نعطله هو ورجاله لأطول وقت ممكن، ونحاول بكل الطرق أن نبعد الشبهات عنا.. حتى نملك

الوقت الكافي لنقل الكنز وبيعه، ففريد كمال يستطيع أن يمنع بيعنا للكنز في أي وقت بسبب علاقته مع معظم تجار هذا المجال، وحتى أعداؤه فعلى الرغم من كونهم لصوصا فإنهم لا يغدرون ببعضهم بسهولة.. لأن في النهاية فريد كمال أبقى لهم من أي دخيل.

وأضاف عبيد:

ـ ما دام الأمر كذلك، لو وضعنا نردين على الرقم 6 والرقم 1 سيشك في شخص كان صديقا له، وسيبعد عنك الشبهات تماما وأيّ اتهام لك يا وهدان.

ـ من تقصد

ـ إنّه رجل كان يعمل مع فريد كمال قديمًا، وكان تميمة حظه الرّقم 16.

ـ تفكير جيّد يا عبيد.

وسألت أخي:

ـ وكيف سنتصرف في البضاعة

ـ سنأخذ الكنز في مركب ونرحل إلى لندن.

ـ ومن أين سنأتي بالمركب

ـ هذا ليس شأنك.

وقال عبيد:

ـ هل تعي جيدا ما تقول

ـ عند الوصول إلى لندن هناك ستتعرفان على الخواجة كارلوس، لقد اتّفقت معه على كلّ التفاصيل، وهو من سيعطينا مركبه الخاص لنقل البضاعة. بالمناسبة الخواجة كارلوس هو العدوّ الأول لفريد بك كمال، وقد أخبرته أن المقبرة من اكتشافي أنا فقط، وأن فريد كمال ترك لي حرية بيعها كما أشاء.

ـ هل هذا هو الرّجل الّذي تقصده يا عبيد

ردّ عليّ بوجه شارد:

ـ لا ليس هو.. الآخر كان صديقا لفريد وليس عدوا

حل الصمت علينا للحظات قبل أن يقطعه عبيد قائلا:

ـ معذرة، مر زمن طويل على آخر تعاون بيننا.. كيف سنقسّم الكنز

قال وهدان:

ـ كالعادة الثّلث لكل واحد منا.. أليس هذا هو العدل

أجاب عبيد وهو يهزّ رأسه:

ـ نعم... إنّه العدل بعينه.

لكنّ الأمور لم تسر على هذا النّحو.. شعر أنور بغدر أخي فقتله في الحال على باب المقبرة، وحينما هبط إلى داخلها، أتيت من خلفه وضربته بقطعة خشب بكلّ قوّتي فسقط فوق الأرض ميّتا.. كنت حينها مرتبكا وحزينا على فقدان أخي وكاد الحزن يأخذني معه،

ولكن تداركت الأمر الواقع وشجعني عبيد على أنّنا يجب أن نحقّق ما خطّطنا له.

قمت أنا وعبيد بأخذ كل ما استطعنا أن نحمله برفقة جثّة أخي، وهربنا على الفور بواسطة الجمال.. وفي أثناء هروبنا وقف الجمل بشكل مفاجئ ووقعت من عليه، وجزعت قدمي.. قام عبيد بربطها وحملني فوق الجمل مرة أخرى، وواصلنا السير حتى عدنا للديار وخبأنا الكنز.. بعد يومين وجدت تلغرافا من مستر كارلوس يربك كل حساباتي، يخبرني فيه بأنه سيؤجل تنفيذ المهمة إلى مطلع الشهر القادم، وأخبرت عبيد بذلك واتفقنا أن يعود كل منا إلى عمله حتى لا نثير الشبهات حولنا إلى أن يحين الميعاد.

ومرت الأيّام واتفق معي الخواجة ماركو بالنصب على فريد كمال، والفوز منه بأي نقود، ولكني أخبرته أن عواقب النصب عليه ستكون قاسية على كلينا، إلا أنه كان مُصِرّا على ذلك وتصدري وحدي في مواجهة فريد، وعندما رفضت هددني بالفضيحة وتبليغ البوليس عني.. لم أكن أستطيع الهرب بسبب قدمي

المصابة، إضافة إلى أن هروبي سيدفع الخواجة ماركو للشك بي والبحث عني، ولو عرف أي شيء سيبلغ فريد كمال ويتخلص مني.. سهرت ليالي وليالي أفكر كيف أفعلها! لقد نجوت بأعجوبة في المرة الأولى التي راح ضحيتها أخي، فهل من المعقول أن أذهب إليه بقدمي مرة أخرى؟ هذا جنون! وفي يوم ما وجدت فريد كمال يطرق بابي بصفتي الشيخ رمضان بحثا عن قاتل أخيه، فطلبت منه مبلغا ضخما من المال وقطعة ذهب، فما دمت سأغامر بروحي فليكن الثمن جذابا ويستحق المجازفة، ولم يكن أمامي إلا تأجيل كل شيء إلى أن تطيب قدمي، ويقترب موعد تسليم الكنز لمستر كارلوس، ثم أخذ فريد إلى المقبرة مرة أخرى، وهناك كرّرت نفس لعبة الغاز المخدّر معه حتى أرسل له رسالة بأن من قتل أخاه وسرق مقبرته هو أنا، وبما أنني لن أكون موجودا ولن يعرف طريقي عندما يستفيق، فتركت له ما يشير إلى أن الخواجة ماركو هو من وراء كل هذا، فساعة جيب الخواجة ورابطة عنقه وضعتهما على باب المقبرة، وبما أن فريد استنشق الغاز

مرتين، فهذا كاف جدا ليعرف بعقله الفطن من قتل أخاه وسرق مقبرته.

تركت كميّة كافية من السّائل بالقارورة للتخلص من الأحمق عبيد أيضا، حتى لا يقاسمني في كنزي.. كنت متفقا مع أخي على التخلص منه بمجرد الانتهاء من المهمة، وها هي اللعبة انتهت، وبمجرّد دخوله إلى المقبرة مرة أخرى سيغمى عليهما.. وعندما يستيقظان سأكون أنا قد غادرت مصر بأكملها.. وأتمنّى أن يباركا لي في كنزي العظيم.

عبيد

حبال دائبة

الثّانية عشرة ظهرًا

اتّفق معي رمضان على مقابلته عند المقبرة. أخبرني أن هناك فرصة كبيرة للنصب على فريد كمال وإبعاده عن طريقنا إلى الأبد.. أرادني معه لتجهيز الفخّ له ثم نهرب معا إلى لندن.

عندما ذهبت هلعت من منظر فريد كمال، حيث كان رأسه مهشّما تماما على مدخل المقبرة.. منظر بشع، لم أتحمّله، وغضضت بصري عنه متألما.. ناديت على رمضان وأنا أبحث عنه.. لم أجده، وتلاعب الشك بي فهرولت إلى بيته.. وهناك وجدته يستعد للرحيل فواجهته قائلا:

ـ لماذا قتلته

ـ من؟!

ـ فريد كمال.

ـ لم أقتله!

ـ لقد وجدته مهشّم الرأس أمام المقبرة.

ـ أمام المقبرة! لقد تركته في الدّاخل وقد خدّره الغاز.

ـ وما الّذي حدث بعد ذلك

ـ لا أعرف.

ـ إذن ما الّذي تعرفه يا صديقي؟

ـ لا أعرف شيئا.

ـ وخيانتك لي.

ـ أنا لم أخنك.. بل كنت في انتظارك.

ـ تكذب.. تكذب، كما تكذب على الجميع.. تنصب لي فخّا يا ملك الخدع وتريد توريطي في جريمة قتل.

قال كالمرتبك:

ـ لا هذا لم يحدث.

ـ وبماذا تفسر حالك الآن وأنت تستعدّ للهرب بدوني؟!

ـ إطلاقًا.. لقد أتيت إلى هنا من أجل أن أعدّ كلّ شيء حتّى نرحل فورًا ولا نتأخّر عن موعدنا.

ـ هل هذا كل شيء

ـ نعم.

قلت في حسم:

ـ لن أرحل معك.

ـ لماذا

ـ أريد نصيبي الآن.

ـ لم نتّفق على ذلك.

ـ ببساطة سنعيد الاتفاق.

بدا على وجهه التّفكير ثمّ قال:

ـ كما تريد... ولكن ستصرف البضاعة بمفردك ولن يكون لي أيّ علاقة بعد ذلك.. وأذكّرك بأنّ طريقة التّواصل مع مستر كارلوس معي بمفردي.. أعطاني إيّاها أخي قبل موته.

ـ لا يهمّ.

ـ إذن اتبعني لتحصل على نصيبك.

تتبعته حتّى وصلنا إلى غرفة قديمة وقال لي:

ـ كل شيء في هذه الغرفة.. نصيبك الثلث كما اتفقنا.

ـ هذا كان قبل وفاة وهدان، الآن نحن اثنان فقط ونصيبي النّصف.

قال محذّرًا وقد التمعَ الغضب المكبوت في عينيه:

ـ لا تجعل الطّمع يعميك ويخسرك كلّ شيء.

قلتُ بإصرار:

ـ ليس هناك أيّ طمع، هذا هو العدل.

وقبل أن أتقدم خطوة واحدة نحو الغرفة كانت سكينه مغروسة في قلبي.

ـ لماذا فعلت ذلك يا صديقي

ـ الطمع خصلة سيّئة في بني آدم.

لم تستطع روحي أن تعافر داخلي كثيرًا فقد أخرجها بطعنة أخرى.

وقال لي:

ـ إلى اللّقاء يا صديقي.

وشهقت روحي تاركة جسدي ينزف وحيدًا.

العجوز الغجري

أخذ الحق صنعه

كنت أرعى عنزتين هزيلتين هما كلّ ما أملكه.. عندما قامت العاصفة اختبأت خلف صخرة كبيرة، ولما انتهت لم أجد أحد العنزتين فذهبت للبحث عنها، وفي أثناء ذلك شاهدت نفرًا واقفا بمفردة بعيدًا. تقدّمت نحوه علّه يساعدني ولما دنوت منه ارتعب وأخرج طبنجه من جيب جلبابه وصوّبها نحوي.

ـ مكانك.

تصلّبت مكاني في الحال ورفعت يديّ في استسلام وخوف.

ـ ماذا تريد أيّها العجوز

ـ ضاعت عنزتي في العاصفة وكنت أبحث عنها.. أقسم لك لا أقصد أيّ شرّ.

اقترب منّي ولا يزال السّلاح مشهرا نحوي، وقال:

ـ من أنت

ـ أنا راعي غنم فقير، تاهت عنزتي وكنت أبحث عنها.

ـ وماذا أيضا

ـ لا شيء آخر صدّقني.. أنا رجل أشيب ولا أكذب.

نادى على أحدهم دون أن ينطق باسمه، فخرج بعد لحظات بجلبابه المرفوع طرفه في يده من قلب الجبل، وفي يده مصباح مشتعل، وعندما شاهدني أخرج هو الآخر طبنجة من جيبه ووجهها نحوي وقال مستفسرًا:

ـ من هذا

أجاب زميله:

ـ إنّه راعي غنم ضلّ طريقه.

دار الرّجل حولي وقد أطرق صامتا، ثمّ رفع رأسه وتطلّع إليّ، وبان على وجهه التّفكير ثمّ قال:

ـ أمامك خيار من اثنين... الأوّل أن تموت مكانك.

فقلت مرتبكا:

ـ والثّاني؟!

ـ الثّاني أن تسمع ما أقوله لك وتنفذّه بالحرف الواحد.

وأخبرني بأنه لا يريد رؤيتي هنا مرة ثانية وإلا قتلني.

أومأت برأسي بالإيجاب وقلت:

ـ سأغادر المكان كله على الفور

ابتسم الرّجل لقولي وأطلق ضحكة خبيثة وقال:

ـ ليس خسارة فيك.

وأخرج من جيب جلبابه عقدا فرعونيا ثمينا وقدمّه لي، وتابع قائلا:

ـ أعتقد هذا يكفي.

وقبل أن أرحل قال لي محذّرا:

ـ إيّاك أن يخدعك أحد في ثمن العقد.. انتبه، إنّنا لم نحصل عليه بسهولة.

وظللت قرابة الأربع ساعات أبحث عن عنزتي، حتّى لفت نظري أثر ملابس تطفو على سطح كومه من الرّمال.. ورحت أنبش في الرمال استكشف ما هذا.. ظهر لي رجل فاقد الوعي.. جسست نبضه، كانت الحياة تسري في عروقه، وقلبه يخفق ببطء شديد.. وقعت في الحيرة، ماذا أفعل؟ هل أنقذه أم أتركه يكمل مصيره المكتوب؟ ولكني قلت ربما بعثني اللـه في هذا الوقت لأغير مصيره.

حملته على ظهري وذهبت به إلى خيمتي...

استيقظ فريد كمال وقدمت له الطّعام، وحكى لي ما حدث لأخيه، وعرض عليّ مبلغا ضخما من المال مقابل مساعدته في إخراج جثّة أخيه من المقبرة، لكنّه غدر

بي وأطلق على قدمي النار في تصرف غريب وطائش لم أستوعبه.

بصعوبة بالغة عدت إلى خيمتي، بعد عدّة ساعات عانيت فيها الألم الذي زادته الشمس الحارقة والرمال الملتهبة.. كويت جرحي وانتظرت أياما إلى أن اندمل، ولم يعد عقلي يفكر في أيّ شيء إلا قتل هذا الحقير.

لم أكن أعرف كيف أصل إليه.. ظلّ إحساس العجز يطاردني حتّى أتى ذلك اليوم الّذي لمحت فيه فريد كمال في سيارته، وبصحبته الرجل الذي أعطاني العقد الفرعوني.. تتبعتهما.. دخل فريد المقبرة بينما وقف الرجل في الخارج، وبعد مرور وقت ليس بالقليل لثم الرّجل وجهه بالشّال جيدًا، ودخل وما لبث أن خرج وركب سيّارة فريد واختفى.

اقتربت من المقبرة.. هبطت بحذر.. كان المصباح الّذي تركه الرّجل ينير المكان بشكل لا بأس به، وعلى ضوئه وجدت فريد كمال فاقد الوعي.. يبدو أن هذا الرّجل هو من فعل ذلك كنوع من الانتقام منه. جسست

نبضه، الحياة لا تزال متعلقة به.. انتابني الغضب ولم أشعر بنفسي إلّا وأنا أسحبه على باب المقبرة، ثمّ أتيت بحجر كبير وهشمت رأسه بكلّ ما منحني الله من قوّة.

ماري

هكذا كانت الوحدة

الخميس.. الخامسة صباحًا

اليائسون يهربون دوما إلى لامكان، يلقون بأنفسهم إلى الفراغ لكي يعجلوا مصيرهم.. لكن مصيري لم يكن في قبضتي.

فقدت النطق ومعه فقدت آخر ما كان يربطني بالحياة.. حينما تبدأ في فقد الثّقة في التّعبير بحواسك، فقد بدأت قصّة تعبك الحقيقيّة.. لم أعد أملك أيّ قدرة على التّعبير. لا شيء سيتغير.. أنا أستسلم لهذه الجحيم ولإرادة الربّ ليفعل بي ما يشاء.. أنا الآن دميته المطيعة سأقول نعم وحاضر فقط ولن أجادل في أيّ شيء.. أخشى أنّني لم أفهم هذه الرسالة من البداية.. الربّ لا يريد لي الاعتراض ولا التذمّر. فقط الإذعان لقدره والسمع والطاعة التامة لكل أوامره، وتحمّل جبال همومه وحزنه.

أخذني المأمور وسط حراسة مشدّدة إلى نقطة البوليس.. أربكتني رؤية هذه الوجوه المتوحّشة حولي.. يحدّقون بي في تشفٍّ وفرح، ويرسمون ابتسامة ساخرة على وجوههم القبيحة.. لماذا يكرهني الجميع؟ أمّي تودّ أن تنتقم منّي لأنّني أذكرها بفعلتها النجسة، وطفلي غادر الحياة بلا سبب، لا.. هناك سبب، يقولون إنّني أهملت العناية به.. بل يقولون إنّني قتلته.. كما يقولون الآن إنّني قتلت هذا الغريب.. كيف أشرح لهم.. كيف أقول لهم إنّني لم أفعل شيئا حتّى تكرهوني.. أنا مسكينة وضعيفة وخائفة.. إنّني ضائعة في هذا البؤس، كلّما حاولت إشعال أنوار السعادة لا شيء يضيء لي طريقي، وأبقى في ظلام الكآبة حتّى اعتدت عليه وأصبح مناسبا تماما لي.

أجلسني المأمور في غرفته، ورفض وضعي في التّخشيبة، وأتى لي بالطعام والشّراب وقال لي:

ـ لو تكلّمتِ سينتهي كلّ شيء.

الكلام غير مفيد يا حضرة المأمور.. هل المشكلة في هذه الورطة التي أنا فيها؟ أم أن مشكلتي مع الحياة كلّها؟! أنت لم تعش طفولتي التّعيسة، لم تتردد على طبيب نفسي طوال حياتك.. لم تعلنك أمّك ولم تقتل طفلك بيدك. أنا ضائعة في هذا العالم الذي يلاعبني قدره بعنف، يجعلني أبتسم مرّة وأبكي مئات المرّات.

قضيت عمري كلّه أكّافح ضد الحزن والخوف والوحدة القاتلة، إلى نفدت طاقتي وضعف إيماني.. ثمّة وجع ينخر في شرايين قلبي يخبرني أن حياتي على وشك الغروب، وقد راحت هباء، لذلك قرّرت أن أترك المرض والاكتئاب واليأس والإحباط والملل والفشل، لكي ينهوا الأمر على طريقتهم وبأسلوبهم الخاص.

ديفيد

لا مناص

الثامنة صباحًا

كيف سأنقذها؟ حتّى لو كانت خيانتها لي حقيقية فلن أتخلى عنها. ماري تحبّني وقلبها معلق تماما بي ولا يوجد أيّ دليل عكس ذلك، ولا يجب التّسرع في الحكم عليها واتهامها بأيّ شيء قبل أن توضح هي لي كلّ ما حدث.

تركني إدوارد في محنتي ورحل، ولا أعرف إذا كان سيعود أم لا.. وقفته بجواري في تلك الظّروف كفيلة لأن أغفر له ما اقترفه في حقي، ففي النهاية أنا أقدّر دوافعه.. لكنّه رحل وأنا بحاجة شديدة إليه.. بحاجة لمن يخفّف عنّي ويربت على ظهري ويقول لي كل شيء سيكون على ما يرام.

تمّ عرض ماري على طبيب وشخص الحالة على أنّها صدمة عصبية، وهي عبارة عن جرح نفسيّ نتج عن حادث أو فعل عنيف، لكن عند عرضها على كونسلتو من المتخصّصين رفضوا فكرة احتجازها في المستشفى، لديهم شكوك حول ادّعائها المرض. طلبت منهم التّواصل مع دكتور هيدسون المتابع لحالاتها ولكنّهم رفضوا تماما.

جلست معها كثيرًا حتّى تتكلم قبل العرض على النّيابة ولكن لا فائدة، رفضت محاولاتي في البوح والتّنفيس عن هذا الإثم الذي يكبس صدرها. ماري تاريخها المرضي غير مبشر، وأخشى أن تكون قد دخلت في مضاعفات لا يعلم خطورتها سوى الرب.

حاول المحامي الذي أوكلته للدّفاع عنها في استخراج أيّ كلمة منها ولكن بلا جدوى.. ظلت صامتة كأنّ الكلام نفد منها، أو كأنّها أصبحت تعتقد أنّ الحديث لا طائل منه.

لقد خرجت من محنتها لمحنة أكبر، وزاد معها الحزن والاكتئاب.. أخاف أن تعود إلى سيرتها الأولى وأفقدها للأبد.

لم أعد أعرف ما يجب عليّ فعله مع تلك الحياة القاسية التي ترفض منحي السعادة.. حياتي يتمّ تدميرها بشكل لا معقول، أفقد فيها كل أسباب الحياة.. عندما كنت صغيرًا كنت طفلا يعاني من صعوبة في الحديث ويضحك عليه زملاؤه في الصّف.. كنت أتألم حقّا من ضحكاتهم ما دفعني للابتعاد عنهم والاهتمام بالصيد، ففي الصمت خير صديق.. ومهما مرّ عليّ من لحظات، تظل مرارة فقدان أمّي في طفولتي هي أكبر وجع شعرت به حينها، أمّا أبي فمات بعدما اكتفى من الحياة واكتفيت أنا منه مثلما كنت قد اكتفيت من زوجتي الأولى، رحيلها لم يحزنني بشدّة، على العكس من رحيل أختي التي كسرت قلبي بقرارها الجريء بالانتحار، هي أقوى لحظات الشّجاعة في حياة أيّ إنسان.. وفي النهاية تهشمّ ما تبقّى من روحي برحيل طفلي الرضيع على يد ماري.. لم أكره

ماري إطلاقًا، أنا أحبها وهي آخر ما تبقى لي في هذه الجحيم الملعونة.

تمّ عرضها على قاضي التحقيق، الذي لم يفلح هو الآخر في أخذ أيّ كلمة منها، وتمّ تجديد حبسها وتحويل القضية إلى المحكمة المختلطة، للنّظر في الفصل في تلك المسألة.

ديفيد

المحاكمة

السبت.. التاسعة صباحًا

اليوم الجلسة الأولى في محاكمة ماري...

حاولت أن أوكل أكثر من محام بجانب المحامي الأساسيّ، ولكنهم أحبطوني فلم يكونوا متفائلين، موقفها ضعيف جدًّا نظرا لتلبسها بالجريمة، إضافة إلى صمتها غير المقبول.

استيقظت مبكرًا واستيقظ الخوف معي، وقعت عيني على تمثال يسوع وشعرت بشيء ما يجذبني نحوه، فهو الآن الوحيد الذي باستطاعته إنقاذ ماري من ورطتها.. من المرات النادرة التي ينتابني فيها مثل هذا الشعور بأن لا مخلص لي سواه.. تركت السّرير قاصدًا الركوع له.. ضربات قلبي ثارت داخل صدري حتّى كدت أجد صعوبة في التنفس، وبدورها خذلتني قدمي

وأنا أقوم وأتجه نحوه، تراجعت سريعا نحو خزانة الملابس أخذت منها بذلة وتركت الغرفة.. على ممرّ السّلم ارتديت ملابسي، لم يكن لدي أيّ قابلية لتناول الفطور، فأخذت سيارتي وانطلقت.

التوتر يكسو ملامحها وهي واقفة داخل القفص خلف الحواجز الخشبيّة، ومع مرور الوقت ازداد عدد الحضور في القاعة.. وضعت يدي على يدها الممسّكة بالقضبان وقلت لها مطمئنًا:

- سيكون كل شيء على ما يرام.

واكتفت ماري برسم ابتسامة شاحبة ثمّ أدارت وجهها.

جلست بالقرب منها أحاول تأمل وجهها الذي يتحاشى النظر نحوي، كأنّها تدرك أن الأمور لا تبشر بأيّ خير.

هبّ كلّ من في القاعة بالوقف في صمت بلا حراك، دخل القاضي وبرفقته المستشارين والمدّعي العام.

افتتحت الجلسة بمقدّمة من القاضي بلغته الإنجليزية، فالحديث الرسمي هنا مسموح بكل اللغات إلا العربية، وبما أن القضية تخص إنجليزية فقد كانت هي لغة القاعة الرسمية.

استهلت المحاكمة بمرافعة المدعي العام باتهام ماري بالقتل العمد لعشيقها، موضحا أنّها بعد ممارسة الحبّ نشب بينهما خلاف حاد تطور إلى قتل المجني عليه، ومن شدة الصدمة أو بما أنه ليس هناك ما يقال خاصّة أمام زوجها، فالتزمت الصمت حرصا منها على ألّا تزيد من جراح شريك حياتها.. ورأيت في تفسيره بعض المنطق.. أما مرافعة المحامي الموكل للدفاع عن ماري فكانت إنشائيّة رتيبة، لم يكن هناك شهود ولا تغرات ولا أيّ شيء يثبت أن ماري ستخرج من هذا المأزق.. ركز المحامي على نقطة أنّ ماري تعاني من أمراض نفسية وتعالج منذ سنوات، وقدّم للمحكمة بعض التّقارير الطبية التي تثبت ادعاءه، ودعمه في ذلك أيضا عندما بدأت تظهر تشنجات غريبة عليها، ما أثار

حفيظة الحضور ودفع القاضي لتحويلها إلى مصحة نفسية، للكشف على قواها العقلية.

ما أن نهض القاضي من كرسيه حتّى ضجت القاعة بأصوات كثيرة متشابهة، لم أفهم من همهمتها شيئا.. كنت أشعر بالعجز والخوف على المصير الغامض الذي تواجهه ماري.. ولاحت أمام عيني حقيقة واحدة والعسكري يأخذها من القفص.. إنّها لن تعود لي مرة أخرى.

عدت إلى البيت وحيدًا، ولم يعد أمامي إلا أن أكون وحيدًا.. عقلي مشتّت ويغمره كم رهيب من الهواجس. في أثناء صعودي إلى الطابق الأعلى خلعت حذائي وسترتي ورابطة عنقي وبنطلوني وجواربي وقميصي الأبيض. سرت إلى غرفتي شبه عارٍ وقبل أن أشرع في التّمدد في السّرير وجدت الفوضى تعمّ المكان، وكل شيء في غير موضعه، خزانة الملابس مفتوحة والملابس خارجة على الأرض. قمت واتجهت إلى صندوق ذهب ماري فلم أجده ولم أجد مدخراتنا من النقود، كل ما كنا نمتلكه سرق. نزلت مسرعا إلى

الأسفل نحو غرفة مكتبي. بردياتي وخرائطي غير موجودة. وارتعبت عندما جال بذهني أنّه يمكن أن يكون سرق.. تجمّد الخاطر في ذهني وهرولت إلى الأسفل نحو القبو، وكما قال لي قلبي لقد سرقت معدّات صيدي، لم أبال ومددت يدي في أحد الفتحات المنتشرة في كل مكان ولم أجد أيّ شيء. مددت يدي في فتحة غيرها وغيرها إلى أن انتهيت من وضع يدي.. درت في المكان مثل المجنون أبحث عن حلمي الذي ضاع، سُرقت البرديّات والخرائط التي تخص المدينة الغارقة.. وسقطت جاثيا على ركبتي، وكأنّ ظهري قد قسم ولم أتمالك نفسي في البكاء.

ضاع كل شيء.. ضاعت زوجتي الأولى وزوجتي الثانية وأختي وطفلي الصغير وعملي، وحلم مدينتي الغارقة انتهى بضياع الخرائط والبرديات، فمن دونها لن يصدق أحد أنّ هذا البحر يبتلع حضارة عظيمة، وليس معي المال لأبدأ في مغامرة البحث مرّة أخرى.

ركبني اليأس ولم يعد أمامي أي خيار.. صعدت إلى الأعلى ومن درج مكتبي أخذت مسدسي، وبحركة

خاطفة ضربت رأسي بعيار حفر طريقة داخل عقلي ليستقر داخله.. انهلت فوق الأرض بلا مقاومة وهمست لنفسي:

- إنّها النهاية المثالية لمنقب الآثار اللّعين ديفيد كاميرون.

رضا عصفورة

المنحوس منحوس

تعتمد مهنتنا على الدقة واختيار الوقت المناسب، الأمور يجب أن تتمّ في هدوء وفوق نار هادئة.

خرجت من السجن منذ عامين تقريبا، كان قد حكم عليّ في قضيّة سرقة بعض المصوغات من محل الجواهرجي إيزاك حاييم، رجل الذهب الأول في الإسكندرية «تِمّن»، فهو مثل كل اليهود محظوظ، حتّى عند سرقتهم ينقذهم الله بأعجوبة ويحافظ على أموالهم التي تعدّ فلا تحصى.

لم يكن أمامي بعد إطلاق سراحي إلّا أن أهدأ، حتّى تغفل عنّي عيون رجال البوليس، وأعطي انطباعا بأنّني صرت مسالما ووديعا.

كنت أضع رجلا واحدا هدفا لي.. إنه صيد سهل وبلا متاعب..

الأقاويل حول ثروة الخواجة ديفيد كثيرة، وأرض الواقع تؤيد ذلك، فهو الوحيد الذي شيد منزلا ضخمًا على شواطئ الإسكندرية المهجورة، وأوصل إليه الكهرباء، والمياه، والتليفون، كلّ ذلك من حسابه الخاصّ، إضافة إلى سعيه للحفر في قاع البحر، وبالتأكيد كلفه الكثير والكثير، لذلك ظل حلما كبيرا لي أن أغتنم أمواله.

ظللت قرابة العام أراقبه وبسبب عدم مغادرته هو وزوجته المنزل كثيرًا، أجلت مخطّطي. في يوم محاكمة زوجته لاحت لي الفرصة الأفضل لدخول المنزل. من قبل كانت هناك عدة فرص، ولكن تردّد أحد أصدقائهم بشكل متكرّر على المنزل حتّى في غيابهم، وكان يفشل كلّ خططي ويدفعني للتّراجع.

في ذلك اليوم بمجرد مغادرة ديفيد للمنزل في السّابعة صباحًا، انتظرت حتى اختفى بأوتوموبيله عن نظري وهرولت إلى الفيلا.. تسلقت السور وقفزت من عليه إلى الداخل.. عبرت الحديقة ورحت أدور حول البيت بحثا عن ثغرة للدخول، ولكن لم يكن أمامي إلا كسر

زجاج شبّاك المطبخ، ومنه تسللت للداخل.. حاولت أن أكون حذرًا حتّى أتأكّد أن لا أحد هنا.. صعدت نحو الأعلى بحذر.. بحثت في الغرف واطمأن بالي بأنّ لا أحد موجودا.. ولجت إلى غرفة النّوم وبدأت في البحث عن مرادي، لم أجد إلا صندوقا به مجوهرات ثمينة وصندوقا آخر به رزمة من النّقود، وضعتهما في جيوب بذلتي وعدلت طربوشي وخرجت.. عند نزولي إلى الأسفل وجدت غرفة مغلقة، فتخيلت أنّ بها خزانة ممتلئة بالفلوس والذهب.. كسرت بابها ودخلت.. عبثت بكلّ أرفف المكتبة وأدراج المكتب، فلم أجد إلا العديد من البرديّات، جمعتها كلّها ولففتها كقطعة واحدة ووضعتها تحت إبطي وخرجت.

اتجهت إلى محطة القطار وأخذت قطار المحروسة، وبمجرّد وصولي بعت كل المجوهرات حتّى أتخلّص من عبئها، وذهبت إلى فندق مينا هاوس.. طلبت غرفة وفيها خبأت كل ما حصلت عليه من برديّات وخرائط، ووضعت في جيبي ما تبقى من المال من أجل سهرتي في الّليل.. وقبل أيّ شيء اشتريت خمسًا من أفخم

أنواع البذل وصففت شعري عند أشهر المحلات، وذهبت إلى الفندق في سيارة استأجرتها لتوصلني هناك، حتّى أدخل المكان وأنا من البكوات.

في المساء جلست على البار أوّلا، تجرعت كأسين وغمزت لإحداهن فأتت وجلست بجواري. داعبت يدي جسدها الفائر ثم طلبت لها كأسا واصطحبتها إلى الكازينو.. جلست حول طاولة القمار، ربحت في البداية ولكن سرعان ما بدأت أخسر المرّة تلو الأخرى حتى فرغت جيوبي وخاب أملي، ولم يتبق معي حتّى ثمن الإقامة في الفندق، فلم يكن أمامي أيّ خيار إلا أن أهرب، فما صرفته اليوم لن أستطيع تسديده، وحلال عليهم الخمس بذلات، ليس لي نصيب في ارتدائها.

ورحت أتسكع في الشوارع بحثا عن فريسة جديدة.

رمضان أبو عصران

رحلة الهروب

الأحد.. الثّانية عشرة ظهرًا

جهزت كل شيء... نقلت محتويات الكنز في سيارة فريد واتجهت إلى مدينة الإسكندرية، وهناك قمت ببيع الأوتوموبيل بسعر جيد وأضفت عليهم ما أخذته من جيب فريد، فلا أحد يضمن الظروف ومن الممكن أن أحتاج للمال، لذلك حولت كل ما معي إلى عملة الإنجليز.. وزيادة في الحرص وضعت النقود بداخل قطعة قماش بيضاء ولففتها حول بطني.

عند أذان العصر أتى لي مساعد مستر كارلوس ومعه بعض الرجال، ومضيت أستعد للرحلة الشاقة التي بدأت على الفور.. أخبرني مساعد كارلوس بأنّني سآخذ مركبا صغيرا من أمام أحد الشّواطئ البعيدة عن الميناء، سأكون بمفردي به برفقة الكنز، وسينتظرني هو في سفينة ضخمة خارج الميّاه الإقليمية المصرية،

حتّى لا يكون عليه أي مسؤولية إذا حدث أيّ شيء غير معتاد.. وافقت على كل ما قاله لي، فقد كنت في عجلة لإنهاء هذا الأمر.

في الموعد المحدّد وجدت المركب الصغير في المكان المتفق عليه، ساكن ومربوط في أحد الصّخور.. وضعت بباطنه الكنز وكل ما يلزمني من طعام وشراب.. ربطت طرف جلبابي حول خصري، وكبست طاقيتي الصوف المائلة فوق رأسي، ثمّ فككت الحبل ودفعت القارب إلى داخل البحر قليلا.. قفزت داخله والماء يقطر من قدمي.. وبدأت التجديف بهدوء حتّى لا أفقد كل قوتي سريعًا.. أخذ القارب يعلو ويهبط مع الأمواج وهو يتقدم نحو الأمام وتلوح معه الحياة السعيدة التّي تنتظرني. أخرجت من حقيبتي بعض الطعام وبدأت أمضغه باستمتاع، فكل شيء حولي مبهج وجميل ويدعو إلى التّفاؤل.

لم أكن أتخيل بعد كل ما شاهدته من قسوة وظلم في هذه الدنيا، أنّها ستبتسم لي وتصفح عنّي بل وتقدم لي مكافأة صبري.. إنّ الله دائما عند وعده، لا ينسى

عباده المطحونين.. حياتي الجديدة يجب أن أرتب لها جيّدًا.. أريد أن أكون واحدا من البكوات ذوي الشّوارب المرعبة والكلمة المسموعة.. أريد أن أرتدي أفخم البذلات من بريطانيا وأن أمتلك أوتوموبيلا بسواق وقصرا فخما وآلاف الأفدنة، وأسافر إلى كل دول العالم، وقبل كل هذا أريد زوجة جميلة شقراء، تنسيني كل الشقاء الذي عرفته طوال حياتي، وتمنحني المتعة والحبّ.

كانت المسافة طويلة تبدو بلا نهاية ولكن نور الحياة السعيدة يشرق من بعيد.. يحفزني للمواصلة دون الشعور بالتّعب.

ومر الوقت والشّمس أوشكت على المغيب بالسقوط خلف نقطة بعيدة بعد نهاية البحر، مّا دفعني للإسراع في التجديف، فليس معي ما ينير لي عتمة هذا البحر المخيف..

دون مقدّمات هبت رياح قوية.. اهتزّ المركب فجأة وهاج البحر وبدأت الموجات في دفعة يمينا ويسارًا...

حاولت الإسراع في العودة.. تشبّثت بالمجداف محاولا السّيطرة على حركة القارب لكن اهتزاز الموجات حال دون فعل ذلك، وأصبح القارب خفيفًا تلعب به الأمواج.. تركت المجداف وشعرت بالخوف وأنا أتشبّث بكلتا يديّ بجانبي القارب، عندما بدأت الموجات في دفعة للدّوران حول نفسه، وظهرت على سطح الماء دوّامات متتابعة.. سمعت صوتا حملته الرّياح، يتكلّم قرب أذني.. الصّوت لشخص ليس غريبا عنّي لكنّي لم أتذكره.. الصّوت رخيم وخفيض قليلا كفحيح أفعى يتردّد صداه حولي ويكرّر:

ـ لن تعود.. لن تعود.. لن تعود..

ثمّ بدأ يعلوا أكثر فأكثر.. تماسكت قليلا ورحت أجدف بكل قواي في محاولة للعودة إلى نقطة البداية.. وقلت لنفسي:

ـ لن أموت هنا

اندفعت في التّجديف كالمجنون حتّى حافظ القارب على توازنه.. تنفست الصعداء واستلقيت على ظهري بحثًا عن الراحة، لقد نجوت توًّا من موت محقّق.. السماء مكتظة بالسحب السوداء والصقور تحوم فوقي في دوائر متصلة، ومع هدوء جسدي شعرت ببرودة الهواء ورطوبته.. تلاشي ضوء الشّمس وعمّ الضباب وبدت الرّؤية مستحيلة.

دفعتني موجة مفاجئة فاهتزّ القارب بقوّة.. تبعتها موجة أخرى ألقت بي في دوامة مسعورة لا تعرف سوى الجنون، ودار القارب بلا عقل كالنحلة حتّى انقلب على وجه وسقطت منه.

أخبط بيدي في الماء بشدّة كالمخبول فلم أكن أجيد العوم، وجنّ جنوني حينما أدركت أنّني لن أستطيع النجاة.. أشعر بضآلتي وعجزي وسط هذا البحر الشّاسع.

ضعفت قواي ولم أعد أستطيع المقاومة. استسلمت تماما لضربات الموج التي أنهكتني.. بدأت أختنق وأخذ

قلبي يخفق بسرعة، بينما هناك شيء ما يسحبني نحو القاع بكل سلاسة.. واسودّ كلّ شيء حولي... عيناي تدوران في فراغ مظلم.. وبدأت الحياة تتلاشى منّي تدريجيًّا وحل محلها السواد.

سواد

سواد

سواد

ماري

الوسيلة الأخيرة لحب النفس

في هذه الكآبة المروعة تمضي حياتي بلا معنى، أفكاري حزينة وأكمامي مبلّلة بالدّموع.. قريبا ستنتهي حياتي وأنسى في عزلتي في تلك المصحّة اللّعينة.. لم أعد أملك رفاهية الملل أو التعبير عن التعب، ذهب كل شيء وحل مكانه الصمت. تعرضت لعدة جلسات كهربائية أنهكتني ودمرت آخر ما تبقى داخلي من عقلي الصّغير المتآكل.. فأر الأفكار ظل يقرض فيه بأسنانه الحادة حتى تلاشى ولم يبق منه حتى ما يساعدني على التّفكير.. لكن الأمور لم تسر على هذا النّحو المروع.

العنبر الذي وضعت به ممتلئ بالكثير من المرضى.. لم أقترب منهم ولم أحدث أحدا، ولكنّي كنت أتابع حركة أعينهم الخائفة، وأقرأ تعابير وجوههم وانفعالاتهم الصامتة، أحدق في أعينهم التي لم ألتقط منها أيّ شيء إلا أنّهم مثلي مساكين، عانوا في الخارج مع تلك

الحياة القاسية التي لا تترك أيّ خيار أمام الضعفاء.. لكنّهم يمتازون عن الحثالة التي في الخارج، لأن الجينات المليئة بالحقد والغل والفساد متنحية داخلهم، ولا يوجد أيّ دليل على أنّها ستظهر عليهم في يوم من الأيّام.

ومرت الأيام، وأنا أحاول أن أنجو من رغبتي في الحياة مع الآخرين..

في البداية كانت الرهبة والخوف من المجهول هي المسيطرة عليّ، ولكن مع الوقت ومزيد من المجهود من طبيب المصحة، ذاب الجليد واندمجت في عالمهم النقي وأصبحت فردا منهم وأفتخر بذلك.. فقد ذابت الأفكار السيئة من ذهني ولم أعد أفكر في شيء يذكر.. أصبحت هادئة وبداخلي بريق من الراحة يختفي كلما تذكرت تلك الليلة التي استيقظت فيها ولم أجد ديفيد بجواري، ورحت أبحث عنه في كل مكان في البيت.. هبطت إلى القبو ولم أجد معدات صيده، لكن لفت انتباهي بعض الورق القديم بارز في فوهة إحدى الفتحات الّتي صنعها ديفيد من أجل

هدف لم أعرفه. أخرجتها فكانت عبارة عن مذكراته وفيها يحكي عن أحلامه في اكتشاف المدينة الغارقة ووجدت بعض الخرائط والبرديات.. أتت لي فكرة مجنونة حينها بأن آخذ كل هذه الأوراق وأخبئها تحت جذع الشجرة الفارعة التي في الحديقة، ومن ثمّ أضع له إشارات وألغاز حتى يحصل عليها.. وحشرت كل الورق في زجاجة نبيذ ضخمة حتّى تحمي الورق من دود الأرض، وأقفلت عليها بالفلّينة ووضعتها بالقرب من سريري.. وعندما نزلت للحفر فكّرت في استنشاق بعد الهواء فرحت أسير على الشّاطئ والزجاجة في يدي، ولكن هلعت لمنظر مركب ديفيد البعيد، فوقعت الزّجاجة من قبضتي وهرولت إليه أسحب قاربه إلى خارج البحر، ثم جريت إلى البيت أمسك سمّاعة الهاتف وأطلب الشرطة، ولا أعرف ما حل بمعدات صيده ولا بتلك الزجاجة وفي يد من ستقع تلك البرديات والخرائط.. أتمنّى أن يعيدها البحر له بطريقة ما.. هي أوهام أصبر نفسي بها ولا أملك إلا التّمني، فما يذهب لا يعود أبدا.. آه لو عرف ذلك سيقتلني.. لقد

حطمت حلم عمره الذي سعى إليه كثيرًا.. إنّه الشيء الوحيد الذي أخفيته عنه ولا أحبّ تذكره مطلقًا.

أقضي يومي جالسة في سريري أو على الدكّة الخشبية في الحديقة، أرنو إلى السّماء طوال الوقت أحاول أن أحدث الرب.. أطلب منه أن يظل بجواري ولا يتركني مرة ثانية.. أمنح نفسي الفرصة وأدعها تكتشف عالما جديدا.

لو كان قد قال لي أحد إن أمامي فرصة للعيش وسط المجانين، لقلت له أنت مجنون.. طوال عمري وانطباعي غاية في السّوء عن الآخرين.. لماذا نظن دائما أنّ الآخرين سيّئون، ونتخوف من القرب منهم ونؤمن بأنّنا ولا أحد سوانا الأفضل.. نحن الملائكة وهم الشّياطين.. نحن ذوو القلب الطيب المرهف الذي تجرحه أيّ كلمة أو نظرة وهم عديمو الإحساس والمشاعر.. لماذا لم يخلقنا الله بعقل واحد يشعر بالجميع ويتعاطف معهم بشكل متفاوت على الأقل.

أتحرّك بينهم.. أحاول أن أستشعر عالمهم المسالم كامتداد لي.. إنّني أتحسن هنا، وروحي التي تآكلت بدأت تنبت من جديد.. قرّرت أن أظل فردا منهم.. أدّعي الجنون حتى أعيش في سلام مع نفسي الّتي بدأت تخطو خطوات جادة نحو الأمان.

رويداً رويداً أصبحت الحياة حولي أكثر بساطة، وغدوت أكثر خفة، وأكثر ثقة بنفسي.. تعرفت على ملامحي وأحببتها وأحبتني.

في ذلك اليوم الّذي سطعت فيه الشّمس بشكل لم أستطع معه رّؤية أشعتها التي دخلت عبر النافذة، قصصت شعري، قصصته قصيرا جدّا، ونمت ولم أحلم.

2014/2016

في الختام

تحقق حلم ديفيد بعد مرور أكثر من 70 عام وتم اكتشاف المدينة الغارقة..

جريدة الشرق الأوسط في8يونيو2001:

في6يونيو2001نشرة جريدة الديلي ميل البريطانية:

إبراهيم المحلاوي

Ibra2010@gmail.com

facebook.com/ibra2020

twitter.com/Ibra_Elmahalawy